جمعة الحلفي

مسار السنونو

رواية

ألف ياء
Alf Yaa

مسار السنونو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المؤلف: جمعة الحلفي

الكتاب: مسار السنونو (رواية)

ـ صدرت النسخة الرقمية: تموز/ يوليو 2025
ـ الطبعة الأولى ـ دار الكنوز الأدبية ـ بيروت ـ لبنان، 2003
ـ الطبعة الثانية ـ مجلة گولان ـ كوردستان ـ العراق 2015

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياء AlfYaa »**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جمعة الحلفي

مسار السنونو

أو

(رجل من زمن البطولات)

رواية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «الف باء AlfYaa»

مقدمة

فرح نوروزي كان يغزو خلايا دمي، وأنا أتابع قراءة هذا النص الأدبي الإبداعي الجميل ـ مسار السنونو ـ هذا النص الذي احتلني كلياً وغيبني عن ما حولي. وشدني بقوة إلى صفحاته وأحداثه الإنسانية وصور القسوة المتناهية والكبرياء الكردي الذي لا يرضى إلا بالحرية والعيش بسلام ولو كان الثمن بحار من الدماء..

في هذا النص الأخّاذ استطاع الكاتب المبدع ـ جمعة الحلفي ـ أن يقترب من صميم القائد الكوردي الرمز ـ الملاّ مصطفى البارزاني ـ ونضاله المستميت من أجل عزة الأكراد وبناء الغد الذي ستضحك في وجهه الشمس هذه الفترة الحساسة جداً من نضال الشعب الكردي والمتمثلة في حقبة انهيار جمهورية كوردستان في مهاباد، ومحاولة القضاء كلياً على رموز الجمهورية وكسر شوكتهم من قبل سلطات شاه إيران، حيث يتصدى لها البارزاني الخالد ببيشمه ركّته البارزانيين الأبطال الذين كانوا سند الجمهورية في مهاباد. والبارزاني الخالد الذي اشتهر بإنسانيته وعبقريته العسكرية يقاوم جيوش الشاه ويقرر إنقاذ بيسمه ركّته ويتجه بهم صوب أراضي الروس، في ظل ظروف دولية شائكة، وهنا يأتي دور الكاتب المبدع جمعة الحلفي الذي يعود بالزمن إلى الوراء ليستحضر تلك الأيام الرهيبة والعصيبة من حياة الكرد وقائدهم الفذ البارزاني، وليؤكد سلامة قراره التاريخي بالانسحاب، ومواقفه الإنسانية وعلاقاته الطيبة مع رفاق رحلته..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والكاتب جمعة الحلفي في نصه الإبداعي ـ مسار السنونو ـ الذي يعتمد على حادثة تاريخية، يسمح لخياله الخصب بالتحليق وخلق صور وأحداث فانتازية هادئة تضيف للواقعة التاريخية رتوشاً أدبية لتؤكد قوة قلم الحلفي في المزاوجة بين الواقع والخيال الفني المطلوب في مثل هذه الأعمال.

وفي نصه هذا يؤكد الحلفي نبذ البارزاني للإرهاب بكل أشكاله والذي أصبح دستوراً مقدساً التزمت بـه الحركـة التحررية منذ بداياتها الأولى وإلى اليوم، مما يدل على عظمة البارزاني ونهجه القومي التقدمي السليم في النضال ورفضه التام لكل أشكال الإرهاب والعنف.

أن يتناول كاتب عربي القضـية الكورديـة مـن النـواحي السياسية أو الاجتماعية أو التاريخية، أمر طبيعي لكن عندما يتناول الكاتب العربي هذه القضية من الناحية الفنية فيكتب نصاً "إبداعياً" يؤرخ لمرحلة من مراحل النضال الكوردي، فهذا أمر نادر ومدعاة للقراءة خارج السياق التقليدي لعلاقـة الكـاتب والباحث بموضوعة البحث أو التحليل، ذلك إن مثل هذه الكتابة (الإبداعية) تؤكد جملـة مـن الحقـائق الـتي غيبهـا التطـاحن السياسي وانتشار الروح العصبوية القومية ومن هذه الحقائق إن المبدع الحقيقي، لأية قومية انتمى، يظل «مبدعاً» يتمتع بحس إنساني تمليـه عليـه عمليـة الإبـداع نفسـها بوصـفها صيرورة أخلاقية ونفسية بدئية وصادقة. كما تعني أيضاً، إن نضال الشعوب والقوميات من أجل تحررها وانعتاقهـا هـو نضال مشترك ومشروع ويحظى دائماً بأنصاره المدافعين عنه، حتى بين القوميات الكبيرة صاحبة الباع في اضطهاد القوميات الأصغر. وهو يعني أيضاً إن النخبة المثقفة والمبدعة، تتمتع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بقدر كبير من استقلالية الرؤيا خارج نطاق القيود التي تفرضها الانتماءات والإثنيات والأفكار المتعصبة، وهو حس يرتقي في معانيه إلى ذرى التوحد مع الهم الإنساني. وفي الحالة العراقية يكتسب الأمر أهمية إضافية فبعد سلسلة من مرارات الاضطهاد و الصراع وعقود من النكبات والكوارث، يبدو واجب إعادة اللحمة وترميم ما تهدم في العلاقة التاريخية بين الشعبين الشقيقين (العربي والكوردي) واجباً "أخلاقياً وإنسانياً" قبل أن يكون "واجباً سياسياً"، وهو ما يفترض بالمثقفين والمبدعين من الجانبين لعب دورهم المأمول والحيوي في هذا الشأن وجمعة الحلفي بحسه المرهف يستحق منا نحن الكرد كل الشكر والثناء والمحبة، في خطوته الأولى في هذا المجال.

حسن سليفاني

كردستان ـ دهوك

2002/20/11

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «الف باء AlfYaa»

فضفضة

في خريف العام 1961 حكمت محكمة الرصافة في بغداد، على شقيقي الأكبر، بالسجن ثلاث سنوات، بتهمة الدفاع عن "السلم في كوردستان". كان عمري، يوم ذاك، أقلَّ من عشر سنوات، لكنني أتذكر كيف كانت أمي تندب حظها العاثر وتولول أثناء صلاة المغرب وهي تردد بصوت خافت: اللهمَّ انصر عبد الواحد والأكراد على الحكومة.

وعبد الواحد هو شقيقي، الذي حكمت عليه محكمة الرصافة بالسجن لأنه كان من المشاركين في الحملة، التي نظمها الحزب الشيوعي العراقي للتضامن مع الشعب الكوردي، تحت شعار (السلم في كوردستان).

في بداية كل شهر كنا، أمي وأنا وأحياناً بعض أخوتي، نذهب لزيارة عبد الواحد في معتقل الفضيلية القريب من نهر ديالي شرق بغداد، ونأخذ له معنا، في كل مرة، صرراً محشوة بالفواكه والتمر والخبز، مع صفرطاس من أربع طبقات مليئاً بالرز العنبر والباميا والفاصوليا اليابسة، المطبوخة باللحم. نفترش مع أخي جانباً من ساحة المعتقل، الفسيحة المبلطة بالإسفلت، يحيط بنا، من كل جانب، بقية المعتقلين وزوارهم، مع حشد من الأطفال والصبيان، الذين يجلسون بين أهاليهم بكل تهذيب، خوفاً من رجال الشرطة الذين يشرفون من أسوار المعتقل العالية، وهم يصوبون بنادقهم نحونا.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كنتُ اسأل أخي عبد الواحد، السؤال ذاته، كلما زرناه في معتقل الفضيلية (ماذا فعلت حتى حبسوك؟) وكان يجيبني بابتسامة عابرة وهو يربت على كتفي: (عندما تكبر ستعرف لماذا حبسوني).

بعد ثلاث سنوات كبرتُ قليلاً لكن أخي عبد الواحد لم يخرج من السجن كما كان متوقعاً بل أصبحت زياراتنا له في المعتقل صعبة ومتباعدة، وعندما سألت أمي، يوماً، عن السبب، لم تجبني بل أشاحت بوجهها عني وبكت وهي تولول: اللهّم انصر عبد الواحد والأكراد على البعثيين.

بعد أن خرج عبد الواحد من السجن، في خريف العام 1968 كان البعثيون قد جاءوا إلى السلطة وذهبوا، ثم جاءوا مرة ثانية. وكنتُ كبرتُ بما يكفي لمعرفة الأجوبة المطلوبة عن تلك الأسئلة الطفولية، لكن أخي عبد الواحد كان قد تهدم جسداً وروحاً ولم يعد في وارد أن يخبرني لماذا حبسوه كل هذه السنوات لمجرد أنه كان يدافع عن السلم في كوردستان. ومع أنه كان قد طلّق السياسة، منذ خروجه من السجن، طلقة بائنة، وانهمك بتدبير لقمة العيش لنصف دزينة من بناته الصغيرات، إلا أن ذلك لم يوقف مضايقات الحكومة له ولم يبدد شكوكها، التي ظلت تحوم حوله، لمجرد أنه أطلق على ولده البكر اسم (سلام) وبقي يحتفظ بشاربه الستاليني الغليظ، الذي كان يميز الشيوعيين العراقيين عن سواهم من خلق الله.

في ربيع العام 1972 سألني المحقق في مديرية الأمن العامة، عن النشاط السياسي لعائلتي، وعندما علم بأن أخي الأكبر كان مسجوناً بتهمة الدفاع عن الأكراد وكوردستان، مد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يده إلى أذني وعقصها بقسوة وهو يردد بسخرية: أهل العمارة وين وأهل سليمانية وين؟ وعندما أتذكر اليوم، بعد ثلاثين سنة، عقصة ضابط الأمن تلك، أشعر بألم في أذني اليسرى، مثلما أشعر بالتقزز من روح التعصب والحقد والتعالي، التي كانت تعاملنا بها نحن والأكراد، حكومات الأوباش تلك.

بعد انتهاء جلسة التحقيق، التي حفلت بالإهانات والضرب والركل، أعادوني إلى قاعة المعتقل، وكنتُ حزيناً ومهزوماً، فكان (كاكه حسن) أول من استقبلني عند الباب الحديدي. أخذ بيدي إلى زاوية القاعة وراح يمسح الكدمات في وجهي بقماشة مبلولة بالماء.

كان (كاكة حسن) معتقلاً في قصر النهاية قبل أن يأتوا به إلى الأمن العامة، إثر إغلاق ذلك القصر المشؤوم، بعد وقوع ما يسمى بـ (مؤامرة ناظم كزار) مدير الأمن العام، وادعاء النظام بأنه لم يكن على دراية بالجرائم التي كانت ترتكب فيه. وحين وزعوا سجناء القصر على المعتقلات الأخرى، كانت حصتنا نحو عشرة معتقلين، كان من بينهم (كاكه حسن) أستاذ الجغرافيا في إحدى ثانويات أربيل. عندما جاءوا به من قصر النهاية بقي (كاكه حسن) أياماً عدة مرتاباً بمن حوله، لا ينطق بحرف ولا يكلم أحداً، جرّاء حالة الخوف والاعتياد على الصمت. فقد قال لي يوماً، بعدما انفكت عقدة لسانه، أنه بقي سنة كاملة، يقبع في زنزانة ضيقة ومظلمة، لم ينطق خلالها كلمة واجدة ولم يرَ بشراً، حتى تحولّ الصمت لديه إلى ما يشبه العادة أو المرض. وعندما نجحنا، أنا وصديق آخر، في فك عقدة لسانه وإعادته إلى حالته الطبيعية، شعرنا، بعد أيام، بالندم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

على فعلتنا تلك لأننا لم نستطع، بعد ذلك، إيقاف (كاكه حسن) عن الكلام لا في الليل ولا في النهار. وخلال شهرين تقريباً، درست على يد (كاكه حسن) كل صغيرة وكبيرة عن حياة الشعب الكوردي ونضالاته وتضحياته وعاداته وتقاليده وقصصه وحكاياته، بما في ذلك تلك القصة المدهشة عن رحلة الملاّ مصطفى البارزاني، إثر انهيار جمهورية مهاباد في العام 1946 هو وخمسمائة من رفاقه ومقاتليه، من حدود إيران حتى حدود الاتحاد السوفييتي، مشياً على الأقدام في عز الشتاء والبرد والأمطار والثلوج والقحط والجوع والعطش. الشيء الوحيد الذي لم يستطع (كاكه حسن) تعليمي إياه، هو اللغة الكوردية، فقد كنا، يوم ذاك، نعتقد أن لغة المستقبل، التي يجب أن نتعلمها قبل أية لغة أخرى، هي الروسية، أو السوفيتية، أي لغة الاشتراكية والشيوعية، التي ستعم العالم، من أقصاه إلى أقصاه، بين ليلة وضحاها، لكننا للأسف سرعان ما خُذلنا، ليس باللغة وحدها إنما بالاتحاد السوفييتي نفسه وبالاشتراكية التي كنا نأمل بانتصارها غداً.

عندما أُطلق سراحي من معتقل الأمن العامة بقي (كاكه حسن) هناك. ولا أزال أتذكر كيف ودعني وهو يضحك ويبكي في آن واحد، وكانت وصيته لي، قبل أن يقبلني على جبيني: أرجوك أذهب إلى كوردستان كي تتأكد أن ما يربط الأكراد بالعرب أقوى من دعايات الحكومة.

انتظرت ثلاث سنوات أخرى قبل أن أذهب إلى كوردستان لألبي، متأخراً، دعوة صديقي (كاكه حسن) الذي لم أره بعد ذلك أبداً، وعندما ذهبت إلى هناك تأكدت من كل كلمة قالها

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لي، لا عن وفاء الأكراد وكرمهم وسماحتهم واحترامهم للآخرين فقط، بل وعن مظالم الحكومات التي تكبدوها طوال عقود، وعن روح العداء والتعصب، التي كان يضمرها لهم رجال تلك الحكومات. ففي صيف العام 1975 (وكان القتال في الشمال قد اندلع مجدداً بعد توقيع صدام حسين اتفاقية الجزائر مع شاه إيران، وهي الاتفاقية التي سمحت للحكومة في بغداد، باجتياح وسحق الحركة الكوردية مقابل التنازل عن أجزاء من شط العرب لإيران) نظمت وزارة الدفاع في بغداد رحلة لمجموعة من الصحفيين العراقيين والعرب، لزيارة ما كانت تسميه، حينذاك، بـ "المناطق المحررة في شمال الوطن" وهي عبارة تشي بإحداثيات حرب بين بلد وآخر، أو بين دولة ودولة أخرى، في حين كان الأمر يتعلق بحرب إبادة تشنها السلطة المركزية القومية (العراقية) ضد الشعب العراقي (الكوردي) في الشمال.

كان بصحبتي، في تلك الرحلة، الصديق الكاتب زهير الجزائري، عندما دعانا قائد الفرقة الثامنة المرابطة في أربيل، الجنرال إسماعيل حمو، لرؤية الأسرى الأكراد، ممن كانوا يسمون بـ "العائدين إلى الصف الوطني" وهي عبارة أخرى ملطفة لكنها أكثر سفالة من سابقتها، فعلى خلاف "الوضع الإنساني" الذي وعدنا الجنرال حمو برؤيته، كان مشهد أولئك "العائدين" أشبه بمشهد العبيد في فيلم (ثورة اسبارتكوس) الشهير.

كانوا شبه عراة معصوبي العيون ومقيدين بسلاسل الحديد إلى أوتاد مغروسة في الأرض، معفرين بالطين والدماء

منشورات «ألف باء AlfYaa»

والتراب، بعضهم يئن من جراح بليغة وبعضهم الآخر يتوسل الحصول على شربة ماء.

حين كان الجنرال حمو يشرح لنا كيف استطاع ضباطه وجنوده الأشاوس، اصطياد هذه الأجساد البشرية المتهاوية والمشرفة على الموت، في أية لحظة، من الجوع والعطش والإذلال، شعرت بالاشمئزاز والقرف، وتصورت ذلك الجنرال، الذي قال لنا يومها أن صدام حسين شخصياً استدعاه من بيته خصيصاً لمعالجة التمرد الكوردي، وكأنه خنزير في بزة جنرال، فقلت، حينها، لزميلي زهير: مبروك لنا هذه الانتصارات العظيمة.. ثم خرجنا سوية نبحث عن خمارة نطفئ فيها غضبنا واشمئزازنا.

في الطريق، من أربيل إلى منطقة حرير، حيث حُشرت السيارات التي تنقل الصحفيين، وسط عربات ومدرعات قافلة عسكرية كانت متوجهة إلى هناك، شاهدنا، بأسى وألم، نتائج وآثار البطولات التي اجترحها مبعوث صدام، الجنرال إسماعيل حمو لـ "معالجة" التمرد الكوردي، فعلى طول ذلك الطريق المقفر، كنا نرى بالعين المجردة، عشرات القرى والقصبات والبيوت والمزارع والبساتين وهي تحترق عن بكرة أبيها، أو وهي رماد تنبعث منه بقايا دخان الحرائق، يومها فقط، عرفت، على وجه الدقة، معنى ذلك المصطلح المشؤوم (سياسة الأرض المحروقة) تلك السياسة التي لا تستهدف تدمير حياة البشر فقط، بل وكذلك تدمير سبل استعادة هذه الحياة.

وقد يكون من سوء حظ الجنرال حمو، الذي كان يتباهى أمامنا، طوال السهرة التي أقامها للصحفيين وسط معسكر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الفرقة الثامنة، بقيام ضباطه وجنوده الأشاوس بإعادة "حرث" أراضي شمال العراق و "تنظيفها" من جيوب التمرد، أن صادفنا ما يؤكد قوة البشر المؤمنين والمتشبثين بحقهم في الحياة، في إزاء قوى التدمير مهما كان جبروتها. فقد استطاع مقاتل كوردي واحد فقط، كان يتمترس في قلب كهف معلق على قمة جبل حرير، أن يبعثر قافلتنا العسكرية على جانبي الطريق، وأن يوقف تحركها ساعة كاملة، ولم تتمكن القافلة من مواصلة سيرها إلا بعد قدوم طائرة حربية حكومية قامت بقصف الكهف لإسكات بندقية المقاتل الكوردي.

بعد نحو عشرين سنة من ذلك التاريخ، وبعد أن كانت الحروب والأحداث والكوارث التي عاشتها كوردستان، قد جعلت من ارتكابات الجنرال إسماعيل حمو تبدو كذكرى عابرة في حياة الأكراد ، مقارنة بما ارتكبه الجنرالات الجدد من ممارسات دموية فاقت التصور وبلغت حدود حرق القرى والبشر بالأسلحة الكيمياوية المحرمة دولياً، ذهبت إلى كوردستان مرة ثانية. لكن هذه المرة لم تكن كسابقتها لسببين أثنين أساسيين، أولهما أنني لم أذهب إلى " الشمال الحبيب" من " بغداد الحبيبة" إنما جئتها من منفاي، الذي كان قد بلغ سن الرشد وصار عبئا ثقيلا على الجسد والروح ، ولذلك كانت عودتي إلى "أرض الوطن" أشبه بعودة الابن الضائع لحضن أمه. وثانيهما أن كوردستان كانت قد تخففت من أعباء المظالم وتخلصت من سطوة جنرالات السلطة المركزية ونزهاتهم الدموية في وديانها وسهولها وجبالها. ولهذا أيضاً كان علي، قبل أن اذهب، أن استعد لزيارة من نوع آخر هو خليط من

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ذكريات مريرة موشاة بحنين منكسر لأرض وهواء وصداقات وتاريخ وصبوات وأحلام ، ذرتها رياح الحروب والاستبداد والطغيان وجولات الاقتتال والتدمير الذاتي، مثلما كان استعداداً لفرح غامر بلقاء غير مرتقب مع وجوه برقت وانطفأت في زحمة الأيام والسنين فاستحالت ملامحها الأليفة إلى مجرد أطياف تتلامع في الذاكرة. كان أول تلك الوجوه، الذي ترآى لي على صفحة النهر، وانا اقطعه في قارب، متوجها إلى الضفة الحبيبة، ضفة العراق وكوردستان، كان وجه أخي عبد الواحد ، ذلك الذي علمني الأبجدية الأولى في أخوّة العرب والأكراد ومصيرهما المشترك، عندما خسر سنيناً عزيزة من شبابه في ظلمة الدهاليز، ثم خسر مستقبله من جراء ذلك، قبل أن يخسر حياته كلها من جراء الفاقة والعوز والمرض والفقدان وتكالب المحن والشدائد ، في عراق كان يمكن أن يصبح قبلة الدول في الغنى والرفاهية والاستقرار لو توفرت له حكومة عاقلة تؤمن بحق البشر في الحياة ولا تسرقها منهم لأتفه الأسباب. ومن بين تلك الوجوه أيضاً، كان وجه (كاكه حسن) وهو يودعني بقبلة حارة على جبيني، عندما تركته معتقلا في مديرية الأمن العامة ، تلاحقني وصيته العزيزة : أذهب إلى كوردستان لكي تكتشف أن روابط الأخوّة بين الكورد والعرب أقوى من دعاية الحكومة.. وهاأنذا أنفذ وصية كاكه حسن ولكن لا لكي أكتشف تلك الروابط ، فقد كنت اكتشفتها منذ سنين، وإنما لكي أؤكد تلك الروابط واساهم في تعزيزها، ولهذا فقد كنت، قبل أن أذهب إلى كوردستان، قد أنجزت قصتي عن رحلة السنونو, رحلة مهاباد ، حلم الكورد الأزلي، رحلة الموت والولادة معاً، رحلة احتراق وانبثاق الطائر الخالد ، طائر

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفينيق، الذي تمثل الشعوب في دأبها وإصرارها على الانعتاق وابتداع المستحيل من أجل الحياة الحرة الكريمة، مثلما تمثلته الشعوب في احتراقه وانبثاقه من بين الرماد. طائر السنونو ومساره الأبدي في الذهاب والإياب، كان هديتي لذكرى أخي عبد الواحد، ولوجه صديقي كاكه حسن، ولمئوية الزعيم الراحل الملا مصطفى البارزاني .

ج.ح
اللاذقية ـ عين البيضا
خريف 2002

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مسار السنونو

الفكرة الروائية لسيناريو فيلم سينمائي يتناول فترة محددة من حياة الزعيم الراحل الملاّ مصطفى البارزاني، وعلى وجه الخصوص فترة الانسحاب من مهاباد إلى حدود الاتحاد السوفييتي [السابق] إثر انهيار جمهورية مهاباد.

ملاحظة ضرورية:

جميع شخصيات العمل، عدا شخصية الزعيم الراحل الملاّ مصطفى البارزاني، هي شخصيات متخيلة. وكذلك بعض الأحداث الواردة في القصة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

شخصيات العمل

الملاّ مصطفى: (هو الزعيم الخالد الملاّ مصطفى البارزاني. شخصية كفاحية قوية ومرهوبة الجانب، يقدسها البعض من أبناء الشعب الكوردي، تتميز بالشجاعة والإقدام وتحمّل المشاق والصعاب. كما تتميز بالذكاء الفطري الحاد والقدرة على تمييز الكذب والخداع، فضلاً عن أنها شخصية متواضعة لا تقبل التملق والمديح، وتمتلك نظرة ثاقبة.

من عاداته وهواياته المعروفة، لعب الشطرنج والاستماع لأخبار الراديو، والتدخين بشراهة (يستخدم غالباً التبغ المحلي ويلف سجائره بيده ويستعمل مبسماً للتدخين). له معرفة جيدة بأنواع وفوائد الأعشاب البرية، وهو يُعدّ من أصدقاء البيئة لأنه لم يكن يقبل بقطع الأشجار أو صيد الغزلان والأيائل من دون حاجة ضرورية. يرتدي على الدوام، الزي الكوردي التقليدي (الشروال والعمامة الحمراء والبيضاء التي تميز البارزانيين. وفي فترة الدفاع عن جمهورية مهاباد منح رتبة جنرال وارتدى بزة عسكرية روسية برتبة جنرال كانت أهديت له من الجيش السوفييتي، ومع ذلك كان خنجره الشهير لا يفارقه أبداً).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشخصيات الرئيسية:

شيروان: (في العقد الرابع من عمره، نحيف، وسيم، قائد عسكري ومستشار سياسي للملاّ. شخصية عاطفية حالمة. يتميز بصداقته القوية وقربه من الملاّ مصطفى).

ميديا: (في العقد الثالث، ممتلئة، وسيمة، تتصف شخصيتها بالشجاعة والبسالة، تقود فصيلاً من المقاتلين الرجال).

نوزاد: (في العقد الخامس. مقاتل وقائد فصيل الحراسة، تتميز شخصيته بالفظاظة والقسوة).

الطبيب محمود (ثلاثيني، طالب في كلية الطب ببغداد، يلتحق بحملة الدفاع عن جمهورية مهاباد. ويؤدي دوراً مهماً كطبيب خلال المعارك والمواجهات المسلحة).

الشخصيات الثانوية:

نامق: (في العشرينات، مقاتل، أحد مرافقي الملا).

مخلص: (في الخمسينات.مقاتل، يجيد الغناء وتحكى القصص عن عشقه لفتاة كوردية قتلها الإيرانيون).

ملازم خضر: (ضابط عراقي عربي) في الجيش العراقي، يرتبط بصلات وثيقة مع الملاّ ويتعاطف مع الحركة الكوردية).

رحمان: (مقاتل عجوز، فقد ساقه في إحدى المعارك).

صابر: (ثلاثيني. مقاتل).

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

ينبلج الفجر رويداً ليضيء الوادي. خيوط دخان متباطئة تتصاعد من بقايا مواقد، مختلطة بضباب وأبخرة تلف الوادي. خيّم متناثرة ومتباعدة. مقاتلون نائمون على حواف الصخور وهم يمسكون ببنادقهم.

هدوء تام لا تقطعه سوى أصوات زقزقة عصافير وخرير مياه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(2)

حركة دائبة وخافتة لأقدام ثقيلة تتحرك بحذر في زاوية الوادي، قرقعة سلاح، غير مقصودة. عيون تتلصص نحو الوادي الغارق بالهدوء والضباب. ثم فجأة يُسمع دوي رصاص ينطلق من اتجاهات مختلفة نحو الوادي.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(3)

فزع وصراخ وحالة اضطراب وهياج تسود الوادي. نساء وأطفال ورجال يتراكضون مذعورين للاحتماء بالصخور والأشجار. مقاتلون ينهضون فزعين ليردوا على مصادر إطلاق النار. أصوات انفجار قنابل. يتحول الوادي، في لحظات، إلى ساحة حرب. يستمر إطلاق الرصاص، ثم يأتي، من بعيد، صوت أزيز طائرة هليوكوبتر. لحظات وتظهر الطائرة فوق الوادي، وتبدأ بالقصف. انفجارات هنا وهناك وسقوط قتلى. خيّم تحترق من جراء القصف، ثم يُسمع صوت انفجار ضخم يهز جنبات الوادي، ناجم عن سقوط الطائرة، بعد إصابتها، وارتطامها بالصخور وهي تحترق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(4)

عجوز مبتور الساق يتلفع ببطانية ممزقة، يظهر من بين الخرائب ودخان الحرائق، وهو يلوّح بعصا طويلة باتجاه السماء (حيث ارتطمت الطائرة) كمن يتوعد أو يطلق الرصاص، وهو يعربد ويصرخ.

العجوز رحمان وهو يصوب عصاه نحو السماء:

- دم.. دم.. دم.. نعلات باوكت.. مرگ بر بهلوي.. مرچ بر شاه.. الموت.. الموت..

(يلتفت العجوز رحمان صدفة فيرى امرأة تحاول إنقاذ طفلها المصاب فيركض نحوها مسرعاً بقدمه الوحيدة. يلتقط الطفل بيد واحدة ويركض به نحو صخرة ضخمة، تتبعه الأم وهي تولول.. تأخذ منه الطفل وتنظر إليه بامتنان).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(5)

تتراجع أصوات الرصاص شيئاً فشيئاً.. يعود الهدوء تدريجياً إلى الوادي. يُسمع هسيس النيران وهي تلتهم الطائرة. دخان يتصاعد من بعض الخيم المحترقة. أنين جرحى ومصابين ينزفون. أطفال مذعورون ونساء يحاولن تهدأتهم. جثث متناثرة بين الأشجار وعلى حواف الصخور. بعض الجثث لجنود إيرانيين وأخرى لمقاتلين أكراد.

يخيّم الصمت. تلوح صقور وهي تحوم فوق الوادي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(6)

خيمة شبه معتمة، عابقة بدخان السجائر، تتسرب إليها خيوط من ضوء الشمس عبر شقوق وفتحات. في الخيمة هناك ثلة من قادة الفصائل (بينهم امرأة مقاتلة) يتمنطقون بصفوف الرصاص، يجلسون وبنادقهم وراء ظهورهم.

شيروان، مستأنفاً كلاماً سابقاً:

ـ لا أحد كان يتوقع كل هذه القسوة.

نوزاد، يتابع كلام شيروان:

ـ وبهذه السرعة غير المتوقعة؟

ميديا، ترد على كلام نوزاد بشيء من التهكم:

ـ كل شيء متوقع من الشاه، القسوة والسرعة، لكننا نبدو طيبين وكسولين أكثر من اللازم، بحيث أن نصف فصيل الحراسة كان يغط بالنوم أثناء الهجوم.

نوزاد، وهو يحاول تجنب الرد على ميديا:

ـ لن يعودوا مرة ثانية، بعد هذه الخسائر التي تكبدوها.

(تُسمع حركة وقرقعة سلاح خارج الخيمة) يدخل مقاتلان ثم يدخل الملاّ مصطفى وهو يمسك ببندقيته

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بيده، تبدو على وجهه ملامح التوتر والوجوم. (ينهض الجميع باحترام ورهبة).

الملاّ مصطفى، وهو لايزال واقفاً، وكأنه يرد على كلام نوزاد:

ـ بل سيعودون غداً أو بعد غد، بتعزيزات أكبر وطائرات أكثر. ليثأروا لخسائرهم.. لذلك لا يمكن البقاء تحت هذه السماء العدوة. **(ينظر الملاّ مصطفى في وجوه الجميع)** ليس أمامنا من خيار سوى الرحيل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. **(يلتفت لنوزاد)** لا تترك الوادي عرضة للمفاجآت.. عزز الحراسات على القمة وابعث من يرصد المنافذ والطرق المؤدية إلى نغده.

يهز نوزاد برأسه استجابة ثم يطلب الإذن بالخروج.

(يخرج نوزاد ويتبعه الآخرون)

الملاّ مصطفى، مخاطباً شيروان:

ـ ابقَ أنت.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(7)

لم يبقَ أمامه من خيار سوى الرحيل، ومن الأفضل في هذه الليلة بالذات. كان قد فكّر بالأمر ملياً.. قلّب الحلول الممكنة... الفرص المتاحة للبقاء، أو حتى للتحايل على الظروف فترة من الزمن، إلا أن مصير الآخرين كان شاغله الوحيد، فهؤلاء "ذمة برقبته" كما كان قال بالأمس لشقيقه الشيخ أحمد، قبيل رحيله، هو الآخر، بساعات فقط، أو كما كان عاهد نفسه على ذلك يوم انطلق بهم نحو الحلم المعهود. فقد جاؤوا معه، تركوا كل شيء.. بيوتهم ومدنهم وعوائلهم، وتحملوا شتى أنواع الصعاب. قاتلوا ببسالة أدهشت الجميع، دفاعاً عن ذلك الحلم، الذي ومض كالبرق في سماء كوردستان.

نعم هم ذمة برقبته.. لكنهم أصبحوا اليوم عبئاً ثقيلاً بعدما حط الحلم رحاله عند النهاية، وها هو يتحول إلى كابوس. لهذا صار البقاء هنا، تحت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هذه السماء العدوة، معناه تقديم هؤلاء المقاتلين الشجعان لقمة سائغة لمفارز الشاه، التي تبحث عنهم كالطرائد الهاربة، أو كأكباش فداء سيسّرُ الشاه عندما تقدم له على أطباق من ذهب، بعد أن استعاد سطوته لحظة انسحاب جيوش ستالين وانهيار مهاباد.

بعد ساعات من حالة التأمل، التي قضاها في خيمة معتمة لا يضيؤها سوى شعاع قمر باهت، كان يلوح من بين التلال المحيطة بالمدينة، خرج الملاّ مصطفى، وهو يرتدي بزة الجنرال، متجهماً حزيناً، ليعلن قراره على بعض مساعديه السياسيين وبعض قادة الفصائل (جهزوا حالكم للرحيل... ستكون وجهتنا حدود الاتحاد السوفييتي!).

لم يناقش أحد قرار الملاّ مصطفى، بل لا يجرؤ أحد على مثل هذا الأمر، لا بسبب تلك الهالة القدسية التي أضفتها السنون والبطولات والمعارك، على شخصيته القوية، فحسب، إنما لأن البقاء هنا لا معنى له سوى الاستسلام

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لقوات الشاه غداً أو بعد غدٍ في أبعد تقدير. والاستسلام له معنى واحد هو الآخر: الإذلال وقبول شروط المنتصر.. وليس هناك، بين هؤلاء المقـاتلين، الذين خاضوا أشرس المعارك دفاعاً عن مهاباد، من يرتضي إذلال هـذه القوات، التي استعادت للتو، سطوتها المفتقدة، وتريد الآن، استعادة كامل سيطرتها على كوردستان إيران بـأي ثمن.

وسط حالة الذهول، التي أصابت الجميع، جراء ذلك الانهيار المفاجئ والسريع، حاول المـلاّ مصـطفى أن يخفف من وطأة الموقف ومن مرارة الخيبة.. قال لأولئـك المحيطيـن بـه، وهم يلتفون حوله في جوار خيمته المعتمة:

ـ لا تيأسوا ولا تتركوا اليأس يتسرب إلى أرواح المقاتلين، فما خسرناه ليس سوى معركة وأمامنا الكثير من هذه المعارك لننتصر فيها!

تطلّع الجميع إليه باهتمام وكأنهم يستحثونه لمزيد من هذا الكلام، لكي يبـددوا، مـن خلالـه، ذلـك الشـعور

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بالمرارة، الذي يملأ قلوبهم وأرواحهم..
فأضاف قائلاً بهدوء تام:

ـ لا تصدقوا أن الجيش الإيراني هو الذي هزم مهاباد.. الحقيقة هي أن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى هزمتا الاتحاد السوفيتي، وما دفعته مهاباد كان ثمن تلك الهزيمة!

كان لعبارة الملاّ مصطفى تلك أكثر من معنى وأكثر من تفسير، بل إن البعض ممن كان يستمع إليه، لم يفهم، على وجه الدقة، ما هو مقصود بها.. التقط الملاّ مصطفى ما لمحه في عيون البعض، فاستطرد ليزيد الأمر شرحًا وتوضيحًا قال:

ـ لو كنا اعتمدنا على أنفسنا وعلى شعبنا وعلى مقاتلينا لما حدث ما حدث... ولو لم يتاجر البعض، من رؤوس مهاباد، بقضية كوردستان وبنشغل بملء جيوبه وخزائنه، لما حدث الانهيار.. لقد كان بوسعنا، لو ترك لنا الخيار، أن ندافع عن مهاباد وأن نحميها بأرواحنا، لكن هذا البعض لم يترك لنا الفرصة فسارع للاستسلام حتى قبل وصول القوات الإيرانية.

شعر الملاّ مصطفى بهمهمة تدل على وقع كلامه وتأثيره، فشدد قائلاً:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ لذلك أقول لكم وأنا مسؤول عن كلامي، لسنا السبب في ضياع مهاباد، وشعبنا لن يبخل في دعمها وفي الدفاع عنها لو كان القرار بيده، وهذه الدماء التي سالت على أرض مهاباد، ستظل تروي حلم كوردستان بالثورة والحرية والاستقلال.

نزلت عبارة الملاّ مصطفى الأخيرة كالجمر على مسامعهم فأوقظت في أرواحهم وهج الانتصار، الـذي كـانوا شهوداً عليه منذ بعض الوقت فقط.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(8)

الساحة فارغة تماماً. الصمت يسود كل الأرجاء (يشبه الصمت الذي يسبق العاصفة) ثم فجأة ينطلق صوت بوق نفير، يتبعه صياح ديكة. يتعالى صوت البوق فيتداخل مع أصوات الديكة.

الشمس تبدأ بالشروق رويداً من وراء تلة، ومع شروق الشمس ترتفع راية ملونة بالأخضر والأحمر والأبيض، على صارية وسط الساحة، وما أن تصل الراية أعلى الصارية حتى تُسمع إطلاقات مدفعية (تحية للراية) ثم عاصفة من التصفيق والهتاف والزغاريد.

كان المشهد مهيباً ومؤثراً... لم تتسع ساحة حوار جرا لتلك الحشود الضخمة، التي زحفت منذ الفجر فغصت بها الشوارع المؤدية إلى الساحة. جاؤوا من مختلف أنحاء كوردستان رجالاً ونساءً، شباباً وشيوخاً. أفواج لا تحصى ولا تعد من البشر التواقين لحلم الحرية والتحرر،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

جاؤوا في ذلك الصباح، ليشهدوا ولادة أول جمهورية كوردية في تاريخهم المعاصر.

بعد كلمات وخطب قصيرة ألقتها وفود من العراق وتركيا وسوريا والاتحاد السوفييتي وأذربيجان، أعلن القاضي محمد عن قيام جمهورية مهاباد. ثم بدأت راية الجمهورية الملونة بالأخضر والأحمر والأبيض، ترتفع على الصارية الموضوعة وسط الساحة، ومع ارتفاعها كانت آلاف الأعناق ترتفع نحو السماء، في مشهد لم يسبق له مثيل. ثم انطلقت عشرات الآلاف من الحناجر بالهتاف وزغردت النساء بفرح غامر، ومع كل خفقة من خفقات الراية الصاعدة نحو الأفق الرحب، كان الهتاف بحياة كوردستان ومهاباد يتصاعد إلى عنان السماء. فهطلت دموع الكثيرين واختلطت بالزغاريد والأهازيج ودبكات الرقص، التي التأمت وسط الساحة وفي مداخلها.

كان مشهداً مهيباً لا يوازيه في الرهبة والتأثير سوى مشهد الملاّ مصطفى وهو يقف حزيناً في جوار

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خيمته المعتمة، ليبلغ مساعديه بقرار الرحيل عن مهاباد، وكأنه كان يؤّبن ذلك الحلم، الذي ومض كالبرق في سماء كوردستان ثم انطفأ بين صحوة وإغفاءة.. حلم مهاباد وساحة چوار چـرا ورايـة الجمهوريـة الخفاقـة والحشـود والهتافـات والزغاريـد والدموع، ذلك الحلم الذي تحول، في هذه الليلة الموحشة والكئيبة، إلى كابوس مرعب.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(9)

كان الجميع يدرك أن لا مفر من الرحيل بعد انهيار الجمهورية وإعلان رئيسها القاضي محمد، حل حكومتها ومن ثم إبلاغ القوات الإيرانية الزاحفة، بقرار الاستسلام، لكن لا أحد كان يعرف بالضبط لماذا اختار الملاّ مصطفى حدود الاتحاد السوفييتي وليس حدود العراق أو تركيا، أو حتى إيران نفسها، للتوجه إليها. كانت الأسئلة في أذهان المقاتلين وحتى المستشارين السياسيين المحيطين بالملاّ مصطفى، كثيرة ومحيرة... أليس الاتحاد السوفييتي هو نفسه من أجهض الحلم عندما سحب قواته من أذربيجان فسقطت مهاباد كثمرة ناضجة؟ ألم يبع ستالين الجمهورية ببئر نفط وعده به الشاه؟ ألم يخضع لضغوط أمريكا وبريطانيا العظمى عندما تخلى عن أذربيجان ولم يف بوعده للأذريين؟ ألم ينقض ستالين

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وعوده لنا بتزويدنا بالأسلحة الثقيلة للدفاع عن الجمهورية؟

قطع الملاّ مصطفى ذلك الصمت المعبأ بتلك الأسئلة الحائرة، وكأنه حدس بما يدور في أذهان مساعديه، فقال مواصلاً ما انقطع من حديثه:

ـ حروب الكبار لها قوانينها وموازينها وصفقاتها وكواليسها، ومع أننا كنا ضحية هذه الصفقات إلا أننا لا نستطيع أن نلعب مع هؤلاء الكبار.. علينا أن نتبع مصالحنا، مصالح شعبنا وحقوقه المشروعة حتى لو كانت في فم الأسد.. حتى لو اضطررنا للتعامل مع الشياطين.. والاتحاد السوفييتي ليس شيطاناً في كل الأحوال، بل اضطرته الحرب وقوانينها للتخلي عن التزاماته إزاء شعبنا، ولهذا قررت أن نتوجه إلى حدود الاتحاد السوفييتي فهناك سينتظروننا وسيستقبلوننا.. ولكل حادث حديث.

في أعماقه، لم يكن الملاّ مصطفى مقتنعاً تماماً بمثل هذه التبريرات، التي يريد من مساعديه أن يقتنعوا بها، فهو نفسه كان يشعر بألم الخديعة يكاد يطبق على أنفاسه، كلما تذكر ذلك الجنرال السوفييتي، الذي التقاه عشية إعلان الجمهورية وأهداه بزة عسكرية روسية ذات كتفيتين سميكتين مع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جزمـة طويلـة. يومهـا شـكر المـلاّ مصطفى مبعوث الحكومة السوفيتية، على هديته لكنه قال له، ما معناه، نحن ذاهبون للدفاع عـن جمهوريـة مهاباد وهذه البزة لا تصلح لدفاع أو لهجوم.. ما نحتاجـه مـن حكـومتكم الصديقة هو السلاح الفعـلي وليـس بـزات الجـنرالات. فضـحك الجـنرال السـوفييتي وربـت عـلى كتـف المـلاّ مصطفى قائلاً له: اطمئن، ما أن تصل مهاباد حتى تكون الأسلحة قد وصلتها قبلك!

وعندما وصل الملاّ مصطفى مهاباد وبرفقته شقيقه الأكبر الشيخ أحمد، مع عشرة آلاف مقاتل، لم يجد سوى بضع مئات من بنادق الـبرنو والرشاشـات الخفيفة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(10)

مقاتلون (تظهر ميديا في مقدمتهم) يتفقدون مكان تسلل القوة المهاجمة. يفتشون بين الصخور وتحت الأشجار فيعثرون على بندقية وعتاد وعلى بقع دماء جافة على إحدى الصخور، تتطلع ميديا في محيط الصخرة الملطخة بالدم فتكتشف بقع أخرى على بعد أمتار منها.

ميديا (تخاطب المقاتلين بصيغة الأمر):

ـ توغلوا في المنحدر وفتشوا جيداً.. هناك جريح لا يزال موجوداً في المنطقة.

(يهبط المقاتلون باتجاه المنحدر)

المقاتل نامق (وهو يلوّح بسترة عسكرية إيرانية عثر عليها):

ـ أخت ميديا.. أخت ميديا!

(تذهب ميديا بسرعة، تلتقط السترة من يد نامق تقلبها وتبحث في جيوبها فتعثر على أوراق هوية).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ميديا (تقرأ في الأوراق):

ـ ضابط كبير.. جنرال.. يـا إلـهي (تلتفـت نحـو المقاتلين الذين التفوا حولها) لا تتركوا مكانًا دون تفتيش، يجب أن نعثر عليه.. هيا بسرعة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(11)

الملاّ مصطفى جالس وسط الخيمة يلف السجائر من كيس أسود محشو بالتبغ، يجلس قبالته شيروان يدخن. يبدوان وكأنهما كانا يتحادثان.

الملاّ مصطفى (وهو يضع السيجارة في مبسم طويل ويهم بإشعالها):

ـ سيقولون إننا تركنا مهاباد وهربنا!

شيروان (يشعل للملاّ سيجارته):

ـ لا.. لا أقصد ذلك ولكن..

الملاّ مصطفى (يعاجل بالرد):

ـ ليس أنت من يقصد ذلك، بل هناك من سيقول ذلك سرًا أو علنًا.. هل نسيت ما قيل من هذا الكلام بعد رحيل الشيخ أحمد ورفاقه الضباط إلى العراق؟ أنت تعرف أن الشيخ أحمد كان مضطرًا للذهاب كي ينقذ عوائل هؤلاء لكنهم مع ذلك شوهوا الحقيقة. إن الفارق بيننا، يا شيروان، وبين هؤلاء أنهم لا يتحملون المسؤولية التي نتحملها نحن.. كل هؤلاء المقاتلين وعوائلهم.. النساء الأطفال.. الجرحى، هم ذمة برقبتي، برقبتنا جميعًا، ولا يجوز تعريضهم لمزيد من المخاطر.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

شيروان (بهدوء المتفهم):

ـ أنا أتفق معك تماماً، لكن علينا أن نضع الجميع في صورة الموقف وأن لا نترك أحداً عرضة للشك في الهدف من وراء قرار الرحيل (يدخل مقاتل يقدم لهما الشاي) فأنت تعرف أن تلاحق الأحداث وحالة الخيبة التي تركها قرار الاستسلام وتنكيس راية مهاباد، لا تترك فرصة للتفكير العميق والسليم، أو لمعرفة القرار الصح من القرار الخطأ.

الملاّ مصطفى (بعد أن يسحب نفساً عميقاً من سيجارته):

ـ الأمر لا يحتاج للتفكير العميق بل يحتاج للإحساس بالمسؤولية، فمن غير المعقول أن نحمّل الناس أكثر من قدراتهم على التحمل.. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

شيروان (وهو يهز برأسه دلالة الموافقة):

ـ صدق الله العظيم.. هذا ما أقصده، هو أن نجعل الجميع يشعر بهذه المسؤولية، وبأن هذه المعركة ليست معركتنا الأخيرة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الملاّ مصطفى (وهو ينهض، يتحدث بشيء من المزاح والغمز من قناة شيروان، الذي ينهض خلفه):

ـ تبنَ أنتَ أمر ميديا، فهي ثرثارة ومشاغبة، وليس هناك من يستطيع ترويضها غيرك، وأترك لي الباقين.

(يهمان بالخروج من الخيمة فتدخل ميديا مسرعة تحمل بيدها سترة الضابط الإيراني وأوراق هويته).

الملاّ مصطفى (بلهفة ومبادرة):

ـ خيراً.. ماذا تحملين لنا؟

ميديا (تلهث وهي تقدم الأوراق للملاّ):

ـ جنرال.. أنه جنرال.. كان يحاول الفرار كما يبدو إلا أنه جريح، وجدناه.. لا.. أقصد وجدنا أولاً سترته العسكرية هذه (تشير للسترة بيدها) وفيها هويته.. كانت ملطخة بالدم.. السترة.. تبعنا أثر الدم فوجدناه في الكهف مغمياً عليه.

الملاّ مصطفى (بنفاذ صبر):

ـ المهم.. هل هو حي.. أين هو الآن؟

ميديا (مسرورة):

ـ حي.. نعم حي.. وموجود في خيمة السجن.

(يخرج الملاّ مصطفى من الخيمة مسرعاً تتبعه ميديا وشيروان).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ميديا (قبل خروجها، تنظر إلى شيروان خلفها وتبتسم بدلال):

ـ أنتَ أسقطت طائرة إيرانية وأنا أمسكت بجنرال إيراني.

شيروان (يتبع ميديا ضاحكاً):

ـ مبروك... (ثم بهمس) دعيني أراك اليوم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(12)

الضابط الإيراني الأسير (رجل أشيب في الخمسينات من عمره، ممدد على أرض الخيمة وحيداً. الدماء تصبغ قميصه الداخلي وهناك جرح واضح في كتفه الأيمن) يئن أنيناً خافتاً ويتألم.

يدخل الملاّ مصطفى الخيمة تتبعه ميديا وشيروان ونوزاد. يقف على رأس الضابط ينظر في وجهه ثم يعود لينظر في صورته على أوراق الهوية. يجثم الملاّ مصطفى على ركبتيه ويضع راحة يده على جبين الضابط، ثم ينهض.

الملاّ مصطفى (موجهاً كلامه لنوزاد):

ـ ابعث على الطبيب محمود فوراً.

نوزاد (وهو يخرج مسرعاً):

ـ فوراً.. فوراً..

الملاّ مصطفى (ينظر لشيروان):

ـ تابع وضعه الصحي حتى يشفى، لا تتركوا أحداً يدخل عليه أو يتعرض له.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(13)

سفح يمتد بين قمتين وسلسلة بعيدة من الجبال المرصعة ببياض الثلج. يبدو السفح، من بعيد، وكأنه بساط مزركش مليىء بجميع ألوان الطيف. أزهار وورود ونباتات وأعشاب، زرقاء وخضراء وصفراء وحمراء وبنفسجية، ناصعة وكامدة، تسقط عليها خيوط شمس واضحة قريبة فتزيدها بريقًا. مع لمعة قوس قزح، تظهر ميديا، وهي تتحرك بين الأعشاب والأزهار، بيدها كيس من القماش الصوف وسكينًا صغيرة. شعرها الطويل الأسود الفاحم يسقط على الأزهار كلما انحنت لتقطف عشبة أو زهرة. (من بعيد يظهر شيروان قادمًا نحوها فتقف تنظر إليه ثم تعود للقطف).

شيروان (من مسافة ليست بعيدة):

ـ هيه... ماذا تفعلين؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ميديا (وهي لا تزال تقطف):

ـ كما ترى أقطف الأعشاب.

شيروان (يقترب منها):

ـ وهل أصبت بالمغص من قصف الطائرة؟

ميديا (ضاحكة):

ـ لست أنا بل البعض من المستشارين السياسيين.

شيروان (بخبث ومزاح):

ـ وهل عينوك طبيبة للمستشارين السياسيين؟

ميديا (تضحك):

ـ لا أبداً.. كلفني الملاّ مصطفى بقطف الأعشاب البرية، فهو خبير، كما تعرف، بمذاقها وطعم كل واحدة منها ولأي علاج تصلح، فهذه العشبة الصفراء (تربه العشبة المقطوفة للتو) يستخدمها الملاّ مصطفى لعلاج الربو وضيق التنفس، وهذه (تريه عشبة ثانية) لآلام المعدة.

شيروان (وهو يمسك بعشبة ويطحنها بيده):

ـ لا أعرف من أين يأتي هذا الرجل بالوقت والمزاج للاهتمام بهذه الأشياء (لحظة صمت) ميديا... (يمسك بيدها وهي تمتد لقطف عشبة) هل تعرفين أنكِ تشبهين هذا البستان الإلهي (يشير بيده إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السفح) بكل ألوانه وعطوره ولمعانه وبريقه.. وهل تعرفين أن هذه هي ألوان الحب؟

ميديا (وهي تسحب يدها بلطف من يد شيروان):

ـ طلبت أن نلتقي لأمر ضروري وها أنت تتحدث عن الـ...

شيروان (مقاطعاً ميديا بلطف):

ـ وهل هناك ما هو أكثر ضرورة من حديث الحب؟

ميديا (بدلال):

ـ لكننا في زمن الحرب!

شيروان (وهو يقطف وردة حمراء):

ـ لولا الحب لما كنا نحارب.. نحن نحارب دفاعاً عما نحب.. فنحن نحب أرضنا وشعبنا.. نحب كرامتنا وحريتنا ونحب أيضاً (يمد يده بالوردة إلى فم ميديا فتبتسم) أن تبقى هذه الابتسامة مرتسمة على الشفاه.

فجأة يسمعان صوت طائرة قادمة من وراء الجبال فيتوقفان عن الحديث ويبدو الانتباه والفزع على ملامحهما.

شيروان (وهو يمسك بيد ميديا):

ـ طائرة.. هيا.. بسرعة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(يركضان باتجاه الوادي).

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(14)

حالة من الفزع (يحدثها مرور الطائرة فوق الوادي)... حراس يأخذون وضع الاستعداد وراء مدافعهم الرشاشة ويبدأون بالرماية.. البعض منهم يتسلق حواف الجبل... نساء وأطفال يلوذون بالصخور المجاورة.. نداءات تأتي من عمق الوادي...

الملاّ مصطفى يبدو وهو يخرج من خيمته مسرعًا ماسكًا بندقيته بيده، يلحق به اثنان من قادة الفصائل كانا معه داخل الخيمة، ويلتف حوله (لحمايته) ثلة من الحراس ببنادقهم المشرعة.

الملاّ مصطفى (بعد ابتعاد الطائرة، ينظر إلى السماء حيث مرقت):

ـ هذه رسالة واضحة (يلتفت إلى قائدي الفصيلين) يريدون منا إطلاق سراح الجنرال.. لا يجب أن نبقيه طويلاً.

(يعود ليدخل الخيمة يلحق به القائدان).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(15)

الضابط الإيراني وقد بدا معـافى وهو جالس يدخن، كأنه يستمع لأسئلة توجه إليه. الجرح في كتفه ملفـوف بالضمادات.

شيروان (بيده دفتر وقلم، يبدو كأنه كان يدوّن كلاماً سابقاً، يرفع بصره نحو الضابط الإيراني مستأنفاً الكلام):

ـ لسنا حكومة، ولا نحن في حرب نظامية، كي تطالبنا بحقوق الأسير... ثم إننا لم نسيء معاملتك حتى الآن، ولا يمكن أن نطلق سراحك هكذا مجاناً كي تعود غداً لتقتل نساءنا وأطفالنا.

الضابط الإيراني (بهدوء وهو لا يزال يدخن):

ـ إطلاق سراحي من مصلحتكم ومصلحة نساءكم وأطفالكم، فحكومتي تعرف أني أسير لديكم ولن تنتظر طويلاً على احتفاظكم بجنرال كرهينة أو غنيمة حرب.

شيروان (بهدوء أيضاً):

ـ ساعدنا على إطلاق سراحك.. الأمر بيدك.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الضابط الإيراني (يبدو وكأنه التقط إشارة شيروان):

ـ أساعدكم! (يصمت لحظة) ممكن ولكن شرط أن لا تدون شيئًا على لساني ولا تجبرني على توقيع أية ورقة أو وثيقة.

شيروان (يضع الدفتر الذي كان بيده، جانباً ويعيد القلم إلى جيبه):

ـ أعدك بذلك ولكن عدني بأن لا تكذب علي.

الضابط الإيراني (وهو يبتسم لشيروان):

ـ أعدك بأن أقول ما هو نافع لكم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(16)

لم يكن قرار الرحيل صعبًا من الناحية النفسية فحسب بل كان أشبه بالصاعقة نزلت على رؤوس المقاتلين، خاصة أولئك الذين كانت ترافقهم عوائلهم، أو عوائل إخوتهم وأصدقائهم ممن استشهدوا في المعارك التي خاضوها دفاعًا عن الجمهورية. ولم تكن هناك، في ظل الفوضى، التي تركها قرار الاستسلام، والخشية من هجمات مرتقبة قد تشنها القوات الإيرانية، فرصة للتفكير أو للتأمل بما جرى أو بما سيجري، فكيف بقرار الرحيل المفاجئ إلى حدود الاتحاد السوفييتي، الذي يستوجب قطع مئات الكيلو مترات وحمل أطنان من الأسلحة والمؤن وسط أجواء الخوف والترقب والخيبة؟

على عجل جرى كل شيء.. أصدر الملاّ أوامر فورية بجمع كل ما هو متوفر من أسلحة في مهاباد، فتبين أن هناك ما يقرب من ألف بندقية ومائة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وعشرين رشاشاً وقطعـتي مدفعيـة ميدان إضافة إلى كمية لا بأس بها من العتاد والقنابل اليدوية. كذلك أمر بجمع الدواب لحمـل الجـرحى والإمـدادات الغذائية والمياه اللازمة، وقد تبين في اللحظة الأخيرة، أنهم لا يملكون سوى القليل من هذه الإمدادات، بل ليس لديهم غير عدد قليل من الدواب، ومع ذلك لم يتراجع الملاّ مصطفى عـن قرار الرحيل، فخاطب مقاتليـه، قبـل ساعات من ذلك قائلاً لهم.. سـوف تتهكون وتجوعـون وتمشـون حفـاة، لكننا سنصل مبتغانا لا محالة، فشدوا من عزائمكم واستعدوا.. سنرحل غداً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(17)

صوت غناء كوردي يأتي من قلب الوادي.. (غناء عيد النوروز) يتصاعد الغناء شيئًا فشيئًا.. رجال ونساء يتحركون، من أماكن مختلفة، باتجاه مصدر الغناء.. يظهر المغني من بعيد (المقاتل مخلص، أربعيني أشيب يجيد الغناء وتحكى قصص عن عشقه لفتاة قتلها الإيرانيون، وهو جالس حول موقد نار وبندقيته معلقة بكتفه) يتزايد التفاف الناس حول المغني، يرتفع صوت الغناء بمشاركة من الآخرين... يبدأ البعض بتغذية موقد النار بالحطب فيرتفع لهيبها ومعه يرتفع صوت الغناء. يظهر عازف ناي من زاوية، ثم يدخل الحلقة بالقرب من المغني وهو يعزف، ينزل العجوز رحمان إلى الحلقة، تتصاعد الزغاريد، يرقص العجوز رحمان بمفرده وهو يلوح بعصاه بوجوه النساء حتى يختار واحدة فتستجيب وتنزل إلى حلقة الرقص، تتبعها مجموعة من المقاتلين

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والمقاتلات .. تتسع حلقة الرقص حول موقد النار. أصوات زغاريد تتصاعد من زاوية أخرى من الوادي (بالتحديد من الخيمة المحاذية لخيمة الملاّ مصطفى) يختلط صوت الغناء مع أصوات الزغاريد القادمة.. يظهر شيروان فوق صخرة بالقرب من خيمة الملاّ مصطفى وهو يطلق النار في الهواء.. تظهر ميديا وهي تركض باتجاه خيمة الملاّ مصطفى.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(18)

الملاّ مصطفى جالس وسط الخيمة وأمامه فانوس وخارطة مفروشة على الأرض وبيده مبسمه الطويل، تدخل ميديا دون استئذان فلا يلحظها الملاّ مصطفى إلا بعد أن تصبح وسط الخيمة.

الملاّ مصطفى (يرفع رأسه وينظر إلى ميديا وكأنه حدس سبب مجيئها في هذا الوقت):

ـ بشرينا يا ميديا!

ميديا (وهي تضحك.. تطلق زغرودة خافتة):

ـ ألم تسمع الغناء والرقص والزغاريد؟

الملاّ مصطفى (ينهض وهو يبتسم):

ـ النوروز؟

ميديا (بدلال وخبث):

ـ النيروز والولادة معًا.. مبروك وأريد البشارة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الملاّ مصطفى (وهو يهم بالخروج من الخيمة عجلاً، يقبّل ميديا من جبينها):

ـ بشارتك محفوظة.

تعـود أصـوات الغنـاء والرقـص والزغاريد لترتفع تدريجياً... النار لاتزال تتقد ويتصاعد لهيبها، الراقصون ينزلون حلقات نحـو سـاحة صـغيرة. يظهـر شيروان وميديا وهما يدخلان حلقـة الرقص، كل واحد من زاوية، ينظران إلى بعض خفية ويبتسمان ويواصلان الرقص كل في حلقة. يظهر نـوزاد وكأنه يتلصص على ميديا وشيروان.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(19)

خمسة مقاتلين يلتفون، في خيمة عند أطراف الوادي، حول موقد نار فوقه إبريق يغلي. أحدهم يلف سيجارة من كيس تبغ، وآخر يضع في الإبريق كمية من الشاي (يأتيهم صوت الغناء من بعيد.. صوت المغنى مخلص).

المقاتل (1) (وهو يحرك الموقد بعصا.. ثم يشير بها إلى خلف ظهره وكأنه يحدث نفسه):

ـ هل تعرفون قصة هذا المغني؟

المقاتل (2) (وهو لايزال يلف سيجارته):

ـ سمعت أنه مثلَّ بجثة الضابط الإيراني، الذي قتل حبيبته أمام عينيه.

المقاتل (3) (وهو يرفع إبريق الشاي عن الموقد):

ـ مثَّل فقط؟ لقد أكل كبد الضابط.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المقاتل (2) (يضع السيجارة في فمه ويأخذ عوداً مشتعلاً):

ـ مستحيل... هذا المغني الرقيق، الذي لا يأكل غير الخبز والجبنة، يأكل كبد إنسان؟

المقاتل (1) (يضرب الموقد بعصاه):

ـ أنا شاهدته بعينّي هاتين (يؤشر على عينيه) وهو ينتزع كبد الضابط.. لقد ترك أكل اللحم منذ ذلك اليوم.

المقاتل(2):

ـ أي عشق هذا يسلب الإنسان عقله؟

المقاتل(1):

ـ على بشاعة الجريمة .. لكن مخلص فقد عقله في تلك اللحظة، إنسان يمكنه أن يشاهد حبيبته وهي تُغتصب أمام عينيه ثم تُقتل ويبقى لديه عقل؟

(فجأة يدخل العجوز رحمان عليهم والشرر يتطاير من عينيه.. ينظر إليهم نظرة غضب.. ثم يمد عصاه ويحرك الجمر في موقد النار).

(المقاتلون يتجمدون).

منشورات «ألف باء AlfYaa»

العجوز رحمان (وهو يرفع عصاه عن الموقد):

ـ إياكم والعشاق.. لا تلوموا العشاق على ما يرتكبون.

(ثم يخرج وهو يبربر بغضب).

ينظر المقاتلون إلى بعضهم البعض باندهاش، ثم ينفجرون بالضحك.

فجأة يتوقف عازف الناي عن العزف... ثم يصمت المغني.. تتوقف حلقات الرقص.. ينظر الجميع إلى السماء.. صوت الطائرة يعود من جديد. يقترب الصوت.

ينفّض الراقصون... (تسود حالة فزع عامة) ركض باتجاهات مختلفة.. مقاتلون يتسلقون الصخور باتجاه الجبل.. مجموعة من الرجال والنساء يسارعون إلى إطفاء النار بالبطانيات والتراب.. (الطائرة فوق الوادي) أصوات انفجارات في أماكن مختلفة.. نداءات استغاثة من مصابين.. دخان يتصاعد من بعض الخيم المحترقة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(20)

الملاّ مصطفى يدخن بتوتر.. أربعة إلى خمسة من قادة الفصائل يجلسون متفرقين وصامتين.. يدخل ثلاثة قادة آخرون الخيمة، يسلمون باحترام وهيبة ويجلسون.. ثم اثنان بينهم الطبيب محمود.. يتبعهم شيروان وميديا.

(جو من الوجوم والترقب يسود الخيمة).

الملاّ مصطفى (يقطع الصمت موجهاً كلامه لشيروان):

ـ قلت لك إنه التحقيق مع الضابط الإيراني وأطلق سراحه قبل أن يقصفونا!

شيروان (مباغتاً بلوم الملاّ مصطفى له):

ـ لكنهم لا يحتاجون ذريعة لقصفنا وبوسعكم سماع الضابط الأسير نفسه فلديه الكثير من المعلومات عن خطة الشاه، والقصف مجرد بداية.

الملاّ مصطفى (موجهاً الكلام لنوزاد):

ـ اجلب الضابط الإيراني.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نوزاد (ناهضاً بسرعة):

ـ نعم.. فوراً.

الملاّ مصطفى (للطبيب محمود):

ـ كم عدد المصابين؟

محمود (بأسى):

ـ أربعة.. طفل وثلاثة مقاتلين أحدهم أصابته مميتة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(21)

الضابط الإيراني جالس في زاوية من الخيمة يتناول الطعام. يدخل نوزاد. ينظر إلى الضابط بشيء من الامتعاض.

نوزاد (وهو يهز بيده سخرية):

ـ انهض.. أنتم تقتلون أطفالنا ونحن نقدم لكم الطعام.. (ينهض الضابط بتكاسل) در وجهك (يعطي الضابط وجهه للخيمة فيقوم نوزاد بتقييد يديه إلى الخلف) امش معي.. (يخرجان من الخيمة).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(22)

يدخل الضابط الإيراني خيمة الملاّ مصطفى فيتعثر بالبساط الممدود على الأرض (كأن أحداً دفعه من الخلف) يدخل خلفه نوزاد. يتوقف الضابط عند الباب بصمت ويداه مقيدتان إلى الوراء.

الملاّ مصطفى (وهو ينظر في وجه الضابط.. يأمر نوزاد):

ـ فك قيوده (يفك نوزاد قيود الضابط) تفضل بالجلوس (يجلس الضابط بعد أن يسلم على الجالسين).

(تتجه أنظار الجميع نحوه)

الملاّ مصطفى (وهو يقدم سيجارة للضابط):

ـ سمعنا أن إحدى قذائف طائرتكم سقطت قرب خيمتك؟

الضابط (يأخذ السيجارة شاكراً الملاّ مصطفى بحركة من رأسه):

ـ مصيري لا يختلف عن مصيركم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الملاّ مصطفى (يبتسم):

ـ وما هو المصير الذي ينتظرنا برأيكم؟

الضابط (يتطلع في وجوه الجالسين ثم يعود لينظر إلى الملاّ مصطفى):

ـ من دون مقدمات؟

الملاّ مصطفى (بهدوء):

ـ من دون مقدمات.

الضابط (يعود لينظر إلى الجميع):

ـ الجميع استسلموا لقوات جلالة الشاه.. لم تعد هناك جمهورية مهاباد ولا رئيس ولا وزراء.. عادت الأمور إلى البداية، أو إلى نصابها. وليس أمامكم...

الملاّ مصطفى (مقاطعاً الضابط بتوتر):

ـ لا نريد أن نسمع نصائح، نريد أن تسمعنا ما قلته لشيروان.

الضابط (بالهدوء نفسه):

ـ ليست نصائح.. فأنتم من يقرر ويقدر الأمور في النهاية، لكن (يصمت لحظة) القرار صدر في طهران، بعد أن رفضتم إلقاء السلاح والعودة إلى بلادكم.

الملاّ مصطفى (بانزعاج):

ـ كوردستان كلها بلادنا.. وما هو هذا القرار؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الضابط (موجهاً الكلام للجميع):

ـ مطاردتكم وقتلكم أو إلقاء القبض عليكم وتسليمكم لحكومة نوري السعيد.. هناك اتفاقية وقعت مع بغداد في هذا الخصوص، وهناك اتفاقية أخرى مع موسكو فلا تنتظروا مساعدة ستالين فهو السبب وراء انهيار جمهوريتكم وجمهورية الأذريين من قبل.

الملاّ مصطفى (بشيء من الدهشة وعدم التصديق):

ـ وماذا أعطيتم ستالين حتى خضع لكم هكذا؟

الضابط (يبتسم بخبث):

ـ آبار نفط.. مساعدات اقتصادية.. ضغوط من حلفاء بلادنا.. في لندن وواشنطن. المهم إذا لم تجدوا حلاً سريعاً ستجدون أنفسكم في مواجهة لواءين مسلحين بكل أنواع الأسلحة جُردا لمطاردتكم وإحكام الطوق حولكم.

الملاّ مصطفى (ينهض منزعجاً ومتوتراً):

ـ أطلقوا سراحه غداً صباحاً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(23)

في الطريق إلى مدينة نغده، شمال مهاباد، حيث يسكن غالبية المقاتلين، طرحت ميديا على شيروان، فكرة بدت مفاجئة له، بل شمَّ منها رائحة اعتراض على قرار الملاّ مصطفى بالرحيل نحو حـدود الاتحـاد السـوفييتي. توقـف شيروان ونظر إلى ميديا نظرة فيها الكثير من الاستغراب واللوم، فليس هناك، في الواقع، حتى بين مساعدي الملاّ مصطفى المقربين، من يجـرؤ على مناقشة قراراته وأوامره، فكيف بالاعتراض على قرار مصيري لا يملك أحداً اتخاذه أو التراجع عنه، غير الملاّ مصطفى نفسه؟

قال شيروان لميديا، بعدما استأنفا مسيرتهما نحو المدينة:

ـ أعدكِ بأنني لن أفتح فمي وسأحفظ ما قلته للتو سرًا مصانًا، لكن إياك والترويج لمثل هذه الأفكار أمام أحد سواي وفي هذه الساعات الحرجة بالذات.

انتفضـت ميـديا مـن رد شـيروان الساخر والقاسي معًا، الذي وجدتـه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مغالياً في الحذر والتخوف، فتوقفت هي، هذه المرة، وأمسكت بشيروان من كتفه، قالت:

ـ إذا كنتَ تخشى على نفسك من مجرد الكلام فأنا لا أخشى على نفسي حتى من الرصاص... منذ تركنا كوردستان العراق وجئنا لنصرة مهاباد، ونحن نضع أرواحنا على راحاتنا، ليس هناك، بيننا، من تخاذل عن تنفيذ الأوامر أو تراجع عن خوض معركة، أو تقاعس عن واجب، ولهذا يحق لنا، جميعاً أن نبدي آراءنا بمصائرنا ومصائر مئات المقاتلين الذين معنا.

صمتت ميديا قليلاً فلم يرد شيروان وبدا لها وكأنه يريد أن يسمع المزيد.. فاستأنفت حديثها بهدوء:

ـ اسمع يا شيروان: لا أريد الاعتراض على قرار الملاّ مصطفى، ولا أنوي التمرد عليه، لكنني لا أريد أن نتعرض ونعرض المقاتلين معنا للمصير نفسه الذي تعرض له الضباط الأربعة عندما صدقوا بالعفو الذي أصدره نوري السعيد وعادوا للعراق. حتى الملاّ مصطفى نفسه حاول ثني الشيخ أحمد عن قراره بالعودة وأمامكم جميعاً.. لكن ما فائدة ذلك، فقد ذهب الشيخ إلى السجن وذهب الضباط الأربعة إلى حبل المشنقة.. هذه هي نتيجة القرارات الفردية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم تعجب العبارة الأخيرة شيروان فامتعض من ذلك، وقبـل أن يبـادر للإعتراض، أكملت ميديا حديثها، وهذه المرة بهدوء أكثر:

ما أريد توضيحه وإيصاله للملاّ، هو أننا تعبنا من المراهنات على حكومات هذه الدول.. في كل مرة نكتشف، متأخرين للأسف، أننا ضحية تحالفات تشبه المصائد التي تنصب للطرائد، حدث هذا مع حكومة بغداد وحدث مع الشاه ومع الأتراك.. وها نحـن نراهن، بعد هذا كله، على ستالين، ولم تمض سوى أيام على غدره بالأذريين وسماحه لقوات الشـاه بإسقاط جمهوريتهم، فهل بوسـع المـلاّ مصـطفى ضمان حياة مئات المقاتلين بعد أن يكونوا أصبحوا في فم ستالين؟ وما الذي يمنعه من تسليمنا كهدايا أو مقابل صفقات، لحكومة الشاه أو لحكومة نوري السعيد في بغداد؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(24)

في الخيمة المعتمة، كان الصمت مطبقاً لا يقطعه سوى سعال الملا، الذي كان لا يكف عن تدخين سجائره التي يلفها بيده، الواحدة تلو الأخرى، ويضعها في مبسم طويل مصنوع من خشب الورد.

دخل شيروان... حيا الحاضرين بهمس وجلس في أقصى ركن. كانت كلمات ميديا لاتزال ترن في رأسه، وقد حفرت بقلبه أخاديد جديدة من الألم والانكسار، وذكرته بمسلسل طويل من الفظاعات والنكبات، التي تعرض لها شعبه خلال مسيرة نضاله، حتى كأن نكبة مهاباد جاءت كتتويج لهذا كله. وكان شيروان شاهداً على بعض هذه الفظاعات والنكبات بحكم صلته بالملا، الذي عاش معه نحو خمسة عشر عاماً، كان خلالها صديقاً ومرافقاً ومساعداً سياسياً له. تذكر شيروان وهو يتمعن بوجه الملاّ مصطفى، الذي كانت تضيؤه، عيدان الثقاب كلما أشعل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

سيجارة، يوم رآه في السليمانية في شتاء العام 1932 عندما جاؤوا بـه مخفوراً من جنـوب العـراق، برفقـة شقيقه الأكبر الشيخ أحمد، تحيط بهما مفرزة من الشرطة، لتُفرض عليهما الإقامة الجبرية في المدينة، وكان ذلك إثر انهيار التمرد الشعبي، الذي قاده الملاّ مصطفى وشقيقه في منطقـة بادنان، ضد إجراءات حكومة بغـداد بفرض الضرائب على السكان وإقامة مخافر للشرطة في مناطقهم.

بعد ذلك وفي المدرسة الإسلامية بالمدينة، حيث كانا يدرسان، تعـرّف شـيروان، عـن كثـب، عـلى المـلاّ مصطفى، إذ كان، قبل ذلك، يسمع باسمه من أفواه الناس، التي كانت تتحدث باعتزاز وفخر عن تمرد بادنان وتشيد بأسماء قادته، ومنهـم، عـلى وجه الخصوص، الشيخ أحمد والملاّ مصطفى نفسه. وتذكر شيروان أيضاً أن هـذا الكهـل الجـالس أمامـه القرفصـاء وسـط الخيمـة، يـدخن بشراهة ويسعل بين الحين والآخـر، كان منذ شبابه مرهوب الجانب، يتميز

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بجَلده وجرأته، وقلما يسمح لأحد بمناقشة قراراته، فكيف به الآن بعدما أصبح قائداً قومياً بارزاً تخشاه حكومات وجيوش وتحسب له ألف حساب؟ صرف شيروان النظر عن فكرة ميديا مناقشة قرار الرحيل نحو الحدود السوفيتية، ووجد أن من الأفضل تأجيل الموضوع إلى فرصة أخرى، فالطريق إلى الحدود السوفيتية سيستغرق أسابيع، والمطلوب الآن هو تجنب مخاطر البقاء في مهاباد، بعدما وصل أكثر من إنذار بأن قوات الشاه تستعد لمهاجمة مهاباد.

عاد شيروان ليسرح في ذكرياته، مرة أخرى، إلا أن حركة وأصواتاً غير معتادة خارج الخيمة قطعت عليه وعلى الجميع، صمتهم وتأملهم، فأمر الملاّ مصطفى باستطلاع الأمر. لم يدر بخلد شيروان على الإطلاق أن تصل الجرأة بميديا إلى هذا الحد بحيث تعتدي على مقاتل من حراس الملاّ مصطفى، لأنه اعترض طريقها ولم يسمح لها بدخول الخيمة. خرج شيروان ففوجئ بميديا وهي تشتم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وتعربد خارج الخيمة فحاول تهـدئتها وإبعادها، لكن دون جدوى. أمر الملاّ مصطفى، بالسماح لها بالدخول إلى الخيمة فدخلت.. رد على تحيتها بتكلف وهو جالس القرفصاء يـدخن، ولـم يدعها للجلوس، فظلت واقفة صامتة لفترة، حتى طلب منها أن تشرح له ما تريد.

كررت ميديا أمام الملاّ مصطفى ما كانت قالته لشـيروان، دون حـرج أو خشية، لكنها أضافت إليه شيئًا خطيراً وغير متوقع عندما عرضت على الملاّ مصطفى أن يسمح لها بالذهاب إلى طهران لاغتيال الشاه. فوجئ الجميع بهذا المقترح فتوقفوا عن الإتيان بأية حركة بانتظار ردة فعل الملاّ مصطفى.

وفي هذه اللحظة بالذات رفع الملاّ مصطفى رأسه لينظر إلى ميديا نظرة غريبة لـم يسـتطع شـيروان تفسـير معناها.. فتساءل مـع نفسـه.. هـل أعجب الملاّ مصطفى بشجاعة ميديا؟ هل وجد في فكرتهـا الغريبـة عـن اغتيال الشاه، حلاً قد يؤخر هجـوم قواته على مهاباد؟ أم أنه وجد في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ذلك نوعًا من الجنون والتهور قد يجر البلاء على أكراد إيران ويعرضهم إلى مذبحة جديدة؟

وعندما أبتسم الملاّ مصطفى ودعا ميديا للجلوس إلى جانبـه، انفرجـت أسارير شيروان وتصور، مثلما تصورت هي أيضًا، أن الفكرة الجهنمية، التي طرحتها قد وجدت هوى لديه، لكن الملاّ مصطفى سرعان ما خيّب هذه الظنون دفعة واحدة، عندما أمر أحد حراسه باعتقال ميـديا ووضـعها في السجن.

(لم تأت ميديا بأية نأمة ولم تقل شيئًا بل أستسلمت بهـدوء للحـارس وهو يمسك بمعصمها ويسحبها خارج الخيمة).

امتعض شيروان من هذه المفاجأة غير المتوقعة باعتقال ميديا، لكنه لمح ما يشبه ابتسامة رضى وتشفٍ، على وجوه الآخرين من مسـاعدي المـلاّ مصـطفى. لـم يفهـم مغـزى هـذه الابتسامة لحظتها، بيد أنه وجد، بينه وبين نفسه، تبريرًا ما، فميديا في نهاية الأمر، امرأة، وعلى الرغم مما تتحلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

به من إقـدام وشـجاعة فائقـة في خوض المعـارك، وهـو الأمـر الـذي فرض اختيارهـا لقيـادة فصـيل مـن الرجال المقاتلين، تبقى عرضة لغيرة وحسد البعض، خاصة وإن المعارك الأخيرة، التي خاضتها مع فصيلها دفاعاً عن مهاباد، جعلت اسمها يتردد على ألسنة المقاتلين، ليس في كوردستان العـراق فقـط إنمـا في عمـوم كوردستان. هكذا فسّر شيروان الأمر إلا أن جانباً مهماً بل وخطيراً لم يرد على باله أبداً، أو أنه لا يعرف به في واقع الحال، فقد كان هناك كثيرون، ممن كانت تغيظهم جرأة ميديا، وأحياناً ما يبدو أنه عدم احترام من جانبها للتراتبية القائمة، يتسـقطون أخبارهـا الخاصـة، وكـانت علاقتهـا بشـيروان وزياراته، بين الحين والآخر، لمنزلها سواء في بادنان أو هنا في مهاباد، أخطـر هـذه الأخبـار الـتي بلغـت مسامعهم، ذلك أن علاقة من هـذا النوع، وفي ظل الظروف المحيطـة بهم، كانت شبه محرمة إن لم تكن محرمة تماماً، وقد بلغت مسامع الملاّ مصطفى نفسه قبل هذا الوقت بكثير،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكن اعتزاز الملاّ مصطفى بشيروان خاصة، كصديق ورفيق درب ومستشار سياسي محنك، منعه من اتخـاذ أي إجـراء ضـدهما، عـلى الرغـم مـن الضـغوط والتحريـض غـير المباشـر، والمباشر أحيانـاً، مـن قبـل بعـض المقربيــن مــن قــادة الفصــائل والمستشارين.

لكن هل وجد الملاّ مصطفى في تصرف ميديا الأخير واقتراحها المتهور باغتيال الشاه، فرصة لتصـفية هـذه القضية المعلقة من دون المسـاس بشيروان؟

هذا السؤال طرحه شيروان على نفسه لكن بعد أن عرف بجميع تلك التفاصيل من ميديا نفسها، عندما زارها في السـجن وحدثتـه عـن وشـايات وشائعات كثيرة تعرف بأنهـا وصـلت مسامع الملاّ مصطفى، عن علاقتهما.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(25)

كانت السحب البيضاء، كندف القطن تسبح في السماء، عندما بدأ المقاتلون يتقاطرون، يتبع بعضهم بعضاً، في سلسلة طويلة، باتجاه الجبال المحيطة بمدينة نغده شمال مهاباد، وعلى الرغم من الشعور بالإحباط والمرارة، المسيطر على الجميع، ومن إحساس كامن باحتمالات التعرض لمخاطر غير محسوبة، فقد أضفى ذلك الفجر الناصع البياض والهادئ من نهاية آذار، نوعاً من الراحة النفسية، زادها ألفة وصفاء، ضجيج الأطفال وصخبهم وهم يمتطون ظهور الدواب مع أكياس المؤن وصناديق العتاد والأسلحة. لكن هدوء ذلك الصباح الربيعي كان أشبه بالهدوء الذي يسبق العواصف، فبعد مسيرة ساعات قليلة في شعاب ذلك الجبل الأجرد، بدأت تلك السحب المنخفضة، التي كانت كندف القطن قبل قليل، تزداد كثافة وقتامة، وما أن بلغت مقدمة الرتل الطويل قمة ذلك

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الجبل، حتى بدأ رذاذ الهواء البارد الممزوج بندف الثلج يصفع الوجوه. توقف الرتل للغداء وانتظار ما ستسفر عنه العاصفة. وصدرت أوامر سريعة بزيادة الاحتياطات لحماية الأطفال والجرحى خاصة، من صقيع البرد والتحسب لمرحلة قادمة أكثر قسوة، فبعد مسيرة نصف يوم تقريباً سيبدأ الرتل بتسلق جبال زكاروس، حيث تصل سماكة الثلوج أحياناً إلى ثلاثة أمتار. انشغل البعض من المقاتلين بصناعة أحذية من إطارات مطاطية قديمة كانوا جلبوها معهم لهذا الغرض، فمثل هذه الأحذية تتمتع بميزتين أساسيتين فهي أولاً متينة وثانياً لا تصدر صوتاً أثناء المسير، خاصة عند المرور في جوار القرى والقصبات المتناثرة في السفوح، حيث كانت الأوامر واضحة وصارمة بعدم دخول هذه القرى لأي سبب، إلا بقرار من القيادة العليا، خشية من وشايات بعض السكان للقوات الإيرانية، التي بدأت بمطاردتهم منذ ساعة رحيلهم عن مهاباد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان الانحدار عن ظهر ذلك الجبل الأجرد، باتجاه السفح المؤدي إلى الأراضي التركية ومن ثم إلى سلسلة زكاروس الجبلية، حاداً إلى درجة خطرة، ومما زاد في درجة خطورته أكثر، استمرار وتزايد هطول الثلج الممزوج بالمطر، الأمر الذي جعل من الطرق النازلة نحو الوادي زلقة وغير واضحة المعالم. هبط أول رتل من المقاتلين بحذر، تبعه رتل من الدواب المحملة بالمؤن والعتاد وبعض الجرحى، وبعد دقائق معبأة بالصمت والترقب، دوّت صرخة حادة مكتومة من عمق الوادي، منع تساقط الثلوج سماع أصدائها. لكن مَن كان في مقدمة الرتل أدرك، دون أن يرى شيئاً، أن دابة تحمل أحد الجرحى، انزلقت قوائمها في برك الوحل وهوت في القعر. توقف الرتل فجأة، نظر المقاتلون إلى بعضهم البعض بحزن وحيرة إذ لم يكن بالإمكان فعل أي شيء سوى التمسك بمزيد من القوة بالأرض الموحلة والزلقة تفادياً لحادث آخر. كان ذلك الجريح الذي انزلقت به الدابة إلى قعر الوادي أول ضحايا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

طريق الآلام، في تلك الرحلة القاسية،
التي بدت لهم وكأنها من صنع الأقدار.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(26)

قبل بلوغ الأراضي التركية بمسافة ساعات قليلة، عاد المقـاتلون الـذين أرسلوا لاستكشاف الطريـق، بأخبـار سـيئة، اسـتقوها مـن سـكان قريـة حدوديـة، مفادهـا أن قـوة إيرانيـة مدججة بالأسلحة الخفيفـة والثقيلـة، وصلت مساء يوم أمس إلى المنطقة وهي تعسـكر عـلى رؤوس التـلال القريبة المطلة على السفح.

عقد الملاّ مصطفى أول اجتمـاع لقادة الفصائل، منذ انطلقوا من مهاباد، دارت فيه مناقشات ساخنة بين الداعين للاستمرار في المسيرة ومواجهة القوة الإيرانية إذا لزم الأمر، وبين المعارضين لهذا الخيار والمطالبين بتجنب الصدام والبحث عن سبيل آخـر. كـان المـلاّ مصطفى شديد الحرص على تجنب الـدخول في معركـة جديـدة، بعـد سلسلة المواجهات التي خاضوها في مهاباد، إذ على الرغم من أنهم أثبتوا جدارة فائقة خلال تلـك المواجهـات

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وكبـدوا الإيرانـيين خسـائر تفـوق خسائرهم بكثير، إلا أن ظروف المكان والزمان لم تكن في صالحهم هذه المرة. ولـكي يحسـم النقـاش بيـن الفريقين، قال لهم الملاّ مصطفى: لم نقطع من المسافة التي تفصلنا عن هدفنا، سوى القليل، وها أنتم ترون أن البعض قد اهترأت أحـذيتهم بسـبب وعورة الطريق، وازدادت آلام ومعاناة الجرحى وأرهقت النساء والأطفـال، لهذا يجب علينا تجنب الدخول في أية معركـة يمكـن تجنبهـا، فمعركتنـا الحقيقية، في ظروفنا الحاليـة، هي بلـوغ هـدفنا والوصـول إلى حـدود الاتحاد السوفيتي.

أدرك الجميع طبيعة القرار، الذي اتخذه الملاّ مصـطفى إلا أن سـؤالاً حائرًا بقي من دون جواب: إلى أين سيتوجهون في هذه الحالة؟ فالطريق إلى الأراضي التركية شبه مغلق في وجوههم بسبب وجود القوة الإيرانية المرابطـة هنـاك، وخيـار البقـاء في الأراضـي الإيرانيـة، غـير منطـقي ومحفوف بالمخاطر هو الآخر، ولـم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يبق أمامهم سوى منفذ صعب ووعر وطويل يؤدي إلى الأراضي العراقية، وهي ليست هدفًا لمسيرتهم في الأصل.

تطلّع الجميع إلى الملاّ مصطفى بانتظار الجواب على ذلك السؤال الدائر في أذهانهم، فذكرهم الملاّ مصطفى، وقد قرأ في وجوههم ملامح الحيرة والترقب، بأن خطته الأساسية، كما شرحها قبيل الانطلاق من مهاباد، كانت تقضي باستباق القوات الإيرانية نحو الحدود التركية، ثم العودة والالتفاف من خلف هذه القوات والاتجاه شمالاً نحو الحدود السوفيتية، ومادامت القوات الإيرانية قد سبقتنا فعلينا تغيير هذه الخطة في الحال.

تزايد الفضول لسماع قرار الملاّ مصطفى الأخير بتحديد الوجهة، ولم يكن وارداً أن تكون الأراضي العراقية، هي الوجهة، خاصة بعد ورود الأخبار عن إعدام الضباط الأربعة، واعتقال الشيخ أحمد، الذي حكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تطلّع الملاّ مصطفى، هذه المرة، بوجوه مساعديه وقال لهم بحزم: ليس أمامنا سوى الأراضي العراقية.. سننام هنا هذه الليلة ونستعد للرحيل فجر الغد صوب بارزان.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(27)

في ذلك الوادي السحيق، القابع تحت صخور جبال زكاروس نُصبت بعض الخيم على عجل، وتوزع فصيل الحراسة على المرتفعات والتلال المحيطة بالوادي. أعُدت مواقد لإشعال النار بين الصخور بغية إعداد الطعام. ومع انحدار الشمس وراء التلال القريبة بدأ الظلام يهبط رويداً.

في خيمة ربُطت بين شجرتي بطم ضخمتين، لها نافذة واحدة مفتوحة باتجاه الجبل، كانت ميديا جالسة تقرأ، على ضوء فانوس صغير، كتاباً صغيراً مهترئ الأوراق، تحتفظ به في حقيبتها المصنوعة من لباد الصوف أينما ذهبت. بعد أن خيّم الظلام على أرجاء الوادي وانشغل الجميع بإعداد وتناول وجبة العشاء، تسلل شيروان نحو الخيمة. حيا الحارس الواقف على بعد أمتار ودلف إلى داخلها. لم تأت ميديا، وهي تنظر إلى شيروان، أية حركة ولم تبد اهتماماً بمجيئه، واكتفت بنظرة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

محايدة ومعاتبة، ثم عادت تنظر إلى الكتاب بين يديها.

قال شيروان، وهو لايزال يقف عند باب الخيمة المنسدل وراءه:

ـ قرر الملاّ مصطفى أن نغير وجهتنا.. فالقوات الإيرانية تغلق الطريق نحو الأراضي التركية.. وليس أمامنا سوى الأراضي العراقية..

ابتسمت ميديا بشيء من اللامبالاة قبل أن يكمل شيروان كلامه ثم أغلقت الكتاب بهدوء وهي تنهض لتقف بمواجهته. كانت ميديا أطول وأضخم جسداً من شيروان، شعرها طويل، هو الآخر، تشده بمنديل أزرق فيصير أشبه بذيل الفرس، ينسدل على ظهرها. تطلّع شيروان إليها وهي تنهض. نظر ملياً في عينيها الخضراوين وقامتها الفارعة فاجتاحته رغبة عارمة باحتضانها، حاول الاقتراب منها لكنه انتبه فتوقف فجأة، فالوقت لا يناسب مثل هذه الرغبات.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نظرت ميديا في عينيه لحظة وكأنها حدست بما يعتريه من شوق ولهفة، قالت:

ـ في مهاباد، عندما أجلسني الملاّ مصطفى بجانبه.. تذكر هذا المشهد بالتأكيد.. قال لي هامساً.. عندما تكونين بين الرجال حاولي أن لا تظهري وكأنك أكثر شجاعة منهم.. ثم قال لي.. من يتخذ القرارات هنا ليس كل هؤلاء الرجال الذين ترينهم إنما واحد منهم فقط تعرفينه جيداً... لهذا يا شيروان، رفعت ميديا من نبرة صوتها، أنا أعرف أن مصيرنا، أو مصيركم أنتم أيها الرجال، لا يقرره سوى رجل واحد، وقد يذهب بكم إلى حافة الهاوية.

حاول شيروان أن يبقى هادئاً.. قال: لكن لو تبعناك لكنا الآن في قعر الهاوية وليس على حافتها، والملاّ مصطفى يريد أن ينجو بنا جميعاً من هذا المأزق، لذلك منعك من ارتكاب حماقة قد تتسبب في حمام دم لإخوتنا أكراد إيران، ومنع البعض من الدخول في معركة خاسرة مع القوة الإيرانية التي تقطع الطريق لأن المكان والزمان ليسا مناسبين. وهو محق في ذلك.

ـ وها أنتم في مفترق طرق، ردت ميديا، فلا أنتم بمنجى من الخطر ولا بوسعكم مواجهة هذا الخطر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والقضاء عليه، أنتم الآن تشبهون من يضع القيد في يده ويجلس بانتظار معجزة القدر...

سمع شيروان حركة خارج الخيمة، فأشار لها بأن تخفض صوتها، ثم قال وهو يهم بالخروج: كنت أنتظر تغيراً في وجهة نظرك كي أطلب من الملاّ مصطفى أن...

قاطعته ميديا، وهي تعود لتلتقط كتابها الصغير:

ـ لا ضرورة لإطلاق سراحي فالجميع ليسوا أحراراً هنا.

أسدل شيروان باب الخيمة خلفه بانزعاج وعبارة ميديا ترن في رأسه، وما أن قطع بضع خطوات نزولاً نحو المعسكر، حتى كاد يصطدم بجسد ضخم كان يقطع عليه الطريق بين الأشجار، لم يتبين ملامحه في تلك الظلمة الحالكة، لكنه سمع عبارة (كاكه شيروان؟) تطلق في وجهه كسؤال مريب. وقبل أن يرد على السؤال كان ذلك الشبح الضخم قد اختفى في الظلمة. شعر شيروان بقشعريرة تجتاح جسده كله. سار خطوات ثم توقف، شغلته فكرة أن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تتعرض ميديا لمكروه وهي في خيمة السجن. فكّر بالعودة إليها لتحذيرها لكنه خشي من أن يكون إحساسه خاطئًا فيشغلها بالأمر. واصل سيره نحو خيمته مشغولاً بأسئلة لا أجوبة عليها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(28)

نهض الملاّ مصطفى غاضبًا وهو يستمع لتفاصيل قصة مريبة وبذيئة كان يرويها على مسامعة قائد فصيل الحراسة نوزاد. شيروان.. شيروان.. شيروان.. ظل الملاّ مصطفى يردد بنفاد صبر، وقائد الفصيل يجيبه بنعم بعد كل مرة يرد فيها الاسم. ونحن في هذه المحنة يا شيروان.. في هذا المأزق لا نعرف وجهتنا ولا مصائرنا.. كان الملاّ مصطفى يحدّث نفسه، وقائد الفصيل يرد عليه بنعم، نعم، نعم، كيف يسمح لنفسه، كيف.. كيف وماذا سيقولون عن الـ.. أراد قائد الفصيل أن يتكلم فمنعه الملاّ مصطفى هذه المرة بإشارة من يده وطلب منه أن يغادر.. ظل الملاّ مصطفى يقطع الخيمة جيئة وذهابًا وهو غارق في التفكير ويدخن بعصبية. قرفص على الأرض وراح يلف المزيد من السجائر ويضعها على الأرض الواحدة جنب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأخرى ومبسمه في فمه ينفث منه الدخان.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(29)

مجموعة من المقاتلين ملتفين حول موقد نار، يشربون الشاي من إبريق كبير محترق. بعضهم نائم.

المقاتل نامق (وهو يهم بالنهوض، يلتقط بندقيته من الأرض ويتحدث بحرارة).

ـ أين يذهب الملاّ مصطفى نذهب معه.. لا أحد سواه يعرف المسالك والمنافذ، ويعرف، قبل ذلك، مصلحتنا ومصلحة شعبنا.

المقاتل صابر (كأن الكلام كان موجهاً إليه):

ـ لا نختلف معك يا نامق اجلس أولًا لنكمل الحديث بهدوء.. هيا.. هيا اجلس وأكمل شايك. (يجلس نامق نصف جلسة) جميعنا جئنا مع الملاّ مصطفى وسنبقى معه ونذهب أينما ذهب، لكن أليس من حقنا أن نقول رأينا.. هاه.. قل لي بربك هل تقبل أن نفرّ من أمام قوات الشاه، كلما واجهناها، وأين سنذهب هذه المرة.. ها.. كل الطرق مغلقة بوجوهنا.

نامق (يقاطعه بنفاذ صبر):

ـ اترك الأمر لأصحاب القرار، لا شأن لك أنت، أنت مقاتل عليك تنفيذ الأوامر فقط.. هل سمعت أن

منشورات «ألف باء AlfYaa»

جندياً اعترض على قرار قيادته؟ بل على قرار ضابط صف فقط؟ وأنت تريد أن نعترض على الملاّ مصطفى نفسه... الله أكبر.

(ينهض بانزعاج ويخرج من الخيمة).

(بعد خروج نامق يسود الصمت داخل الخيمة. يُسمع فقط هسيس النار في الموقد).

صابر (ينظر في وجوه بقية المقاتلين متسائلاً):

ـ هل قلت شيئاً غلط؟ من يسمع كلام نامق سيقول إننا نريد التمرد أو عصيان الأوامر.

مقاتل 1 (وهو يهم بالنهوض والخروج من الخيمة):

ـ كان المفروض أن لا تتحدث أمامه.. أنت تعرف كيف يجري نقل الكلام وتحريفه هذه الأيام..

(يخرج)

مقاتل 2 (يوجه الكلام إلى صابر، مشيراً إلى كلام المقاتل السابق):

ـ معه حق، فالبعض صار يتحدث عن جماعة ميديا وفصيل ميديا، كأنهم يتحدثون عن عصابة أو عن جواسيس، مع أن ميديا أشجع منهم جميعاً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صابر (وكأنه تذكر ميديا فجأة):

ـ صحيح هل زارها منكم أحد، قد تكون بحاجة لشيء.

مقاتل 2 (وهو يهز برأسه نفياً):

ـ لا يسمح نوزاد بزيارتها، وبالأمس هدد حارس السجن إذا سمح لأحد بالدخول أو حتى الحديث معها.

مقاتل 1:

ـ لا أعرف لماذا يحقد عليها هذا النوزاد؟:

صابر (وهو يهم بالنهوض. منهياً الحديث):

ـ السبب بسيط.. لأنها امرأة شجاعة وسبق لها أن رفضت الزواج منه هذا كل شيء.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(30)

الصمت يسود كل شيء.. خيوط الفجر تتسرب ببطئ شديد فتكشف ملامح أشباح تتحرك بهدوء بين الأشجار وبالقرب من خيمة السجن.

تمدد شيروان على بطانيته مشغول الذهن تفترسه هواجس شتى، فما حدث معه الليلة، وهو يخرج من خيمة ميديا، كان نذير شؤم أدخل الخوف إلى قلبه.. ومع أنه افترض، مرارًا، وهو يحدث نفسه، أن الأمر قد يكون مجرد مصادفة، إلا أن الافتراض الأسوأ ظل شاغله، فهو يعرف أن ميديا مستهدفة بسبب جرأتها وسمعتها وربما جمالها أيضًا، فهناك كثيرون ممن لا تدخل في عقولهم فكرة أن امرأة لم تكمل العقد الرابع، يمكن أن يتردد اسمها مقرونًا بالاحترام والإعجاب، كما هو الحال مع ميديا. أو أن تعامل على قدم المساواة مع الرجال من أمثالهم قضوا أعمارهم وسط وعورة العيش والمخاطر والمعارك، بل وأن تخاطب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الملاّ مصطفى نفسه وكأنها تخاطب واحد من مقاتلي فصيلها. ومع هذا كله، قال شيروان، مع نفسه، ليس هناك من يجرؤ على الإساءة لميديا في وجود الملاّ مصطفى، وهو نفسه أمر باعتقالها لا عقاباً لها، إنما لمنعها من تنفيذ فكرتها المتهورة عن اغتيال الشاه، ومعنى هذا أنه كان يريد حمايتها من تهورها. ظل شيروان يحدّث نفسه مقلباً الاحتمالات والمخاطر، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة فجراً فنام الجميع وساد الصمت أرجاء الوادي. شعر شيروان بخدر النعاس يتسلل إلى جسده، بعد أن أنهكته الأفكار والخيالات، فمد يده ليسحب طرف البطانية تحسباً لصقيع الفجر، ولم يكد يغمض عينيه حتى دوّت رصاصة من بعيد، اخترقت الصمت ومزقت هدوء الوادي. تيبست أطراف شيروان وتجمد الدم في رأسه، وما هي إلا لحظات حتى شقت سماء الوادي صرخة مدوية ظلت تتردد في الأرجاء.. مـ..ي.. د.. يا مـ.. يـ.. د.. يـ.. ا. وكان شيروان يركض كالمجنون

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في الظلمة نحو خيمتها المشدودة بأشجار البطم الضخمة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(31)

الملاّ مصطفى جاثمًا على ركبتيه يصلي. ثلاثة من قادة الفصائل يقفون في زاوية الخيمة. ينتهي الملاّ مصطفى من الصلاة فيمد يده إلى حقيبة جلدية مركونة جانبًا فيخرج منها لوح خشبٍ مربع الشـكل وأوراق بيضـاء وقلمـاً ذهبيًا. يخط على ورقة بيضاء بعض الكلمات ثم يوقّع تحت الكلمات. يمسك بالورقة المكتوبة ويمد يده. يتقدم أحد قادة الفصائل فيستلمها منه بخشوع. ثم يخرج يتبعه الاثنان الآخران.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(32)

بدأ المطر يهطل ولكن خفيفاً. حشد من المقاتلين تبدو على وجوههم ملامح الحزن، يشكلون دائرة. أربعة منهم يتقدمون نحو حفرة في الوسط أعدت للتو، فينزلون فيها جثة (ميديا) ثم يهيلون التراب عليها ويرشونه بالماء. يأتي بعض المقاتلين بكمية من الصخور الكلسية الحمراء فيصفونها بانتظام فوق القبر ثم يثبتون شاهدة من الخشب في مقدمة القبر. يقرأون سورة الفاتحة وينفضّون من حول القبر، فيظهر شيروان واقفاً لوحده فوق القبر وهو يمسك بكتاب صغير (كتاب ميديا نفسه) بين يديه يقف خلفه بمسافة العجوز رحمان.. حزيناً والدموع تترقرق في عينيه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(33)

قادة الفصائل الثلاثة واقفون وسط الخيمة وقفة عسكرية. وفي زاوية من الخيمة يقف مقاتل وبندقيته بيده. يبدو نوزاد جالساً مطأطئ الرأس ويداه مقيدتان إلى الوراء. يتقدم أحد القادة بضع خطوات، يخرج من جيبه ورقة بيضاء (الورقة التي وقعها الملاّ مصطفى) ويبدأ بتلاوة المكتوب فيها على رأس نوزاد.

بسم الله الرحمن الرحيم.. {**ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً**} ثم بعدئذ يُسمع صوت إطلاقة رصاص خافتة، يشاهد القادة الثلاثة، بعد ذلك، وهم يخرجون من الخيمة الواحد تلو الآخر، تبدو على وجوههم ملامح التجهم والكآبة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(34)

أنهى المقاتلون استعداداتهم للرحيل في جو حزين وكئيب زادته الغيـوم الداكنة، التي تلبد السماء فوقهم، وتنذر بمزيد من الأمطار، كآبة وحزنًا، عصفور وحيد ظل يغرد على أشجار الجـوز الضخمة، عندما بدأ رتل من المقاتلين يتسلق بصعوبة، حواف الجبل المحاذية للوادي، تتبعه سلسـلة دواب محملـة بالمؤن والأسلحة والجرحى والأطفال، ثـم سلسـلة أخـرى مـن المقـاتلين المشاة.

توقف شيروان على أول تلة تشرف على الوادي، وهو يضم بكلتا يديه، كتابًا صغيرًا مهترئ الأوراق، ليلقي نظـرة أخيرة على كومة الأحجار الكلسـية، التي كان رَصفها بانتظام فوق قـبر ميديا. وعلى بعد أمتار من ذلك القبر المتواري بين الأدغال الكثيفة، دُفـن قاتل ميديا، قائد فصيل الحراسة، دون شاهدة قبر، فقد أعدم بقرار من الملا، إثر محاكمة سريعة جرت أمام الجميع،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد ساعتين فقط من إطلاقه لتلك الرصاصة القاتلة على رأس ميديا.

بلغ الرتل قمة الجبل ففوجئ بهطول مطر غزير مصحوب بحبات بَرد كبيرة، كانت تنزل على رؤوسهم مثل حجر صلد، مما اضطرهم للتوقف والاحتماء بالصخور الضخمة الناتئة. ظل المطر يهطل ساعات طويلة مصحوباً بالبرد فترك أخاديد كالسواقي راح ينزل منها الماء كالشلالات نحو الوديان والسفوح.

استأنف الرتل مسيرته مرة أخرى بعد أن خف الهطل قليلاً وتوقف البرد، وبعد ساعتين من المسير على تلك القمة الوعرة، التي زادتها برك الماء سوءاً، كان بانتظارهم امتحان آخر أكثر صعوبة وخطورة. فصعود الجبل، رغم صعوبته، حيث ترتد الأثقال على الجسد الصاعد، يظل أسهل وأقل خطورة من النزول منه حيث يكاد الجسد أن يهوى قبل القدمين. ومع شلالات الماء النازلة والرياح القوية التي هبت إثر توقف المطر، أصبح من شبه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المستحيل السيطرة على توازن الجسد وثبات القدمين.

وإذا كان بإمكان مقاتل، يحمل قطعة سلاح واحدة، مواجهة هذه المخاطرة بصعوبة، فقد كان ذلك عصيًا ومستحيلاً على النساء وحتى على الدواب المدربة جيدًا على مثل هذه الطرق والأحوال. لهذا تقرر أن ينزل الجبل من يستطيع نزوله من المقاتلين، وخاصة ممن كلفوا بمهمة استطلاع المنطقة وتعيين مكان للمبيت، على أن ينتظر من لا يستطيع ذلك. ومُنعت النساء والدواب، التي تحمل الأطفال والجرحى، من النزول.

اعترض بعض المقاتلين، ممن كانوا يصطحبون معهم عوائلهم أو رفاقهم الجرحى، على القرار قائلين إن البقاء على قمة الجبل معناه الموت من البرد والصقيع، وهمّوا باللحاق بمن نزل من المقاتلين فتصدى لهم عدد من قادة الفصائل ومنعوهم من النزول، فتطور الأمر وكاد أن يتحول إلى شجار عنيف لولا تدخل الملاّ مصطفى في اللحظة الأخيرة، فقد دعاهم إلى قلب الكهف،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الذي اتخذه مكاناً له، واقترح عليهم حلاً وسطاً هو الانتظار إلى ما قبيل غروب الشمس على أمل أن تخف سيول المياه وتتبين معالم الطريق. ثم أمر بالبحث، على الفور، عن كهوف صالحة للاحتماء إذ ما لزم الأمر المبيت على قمة الجبل. هدأت عاصفة الخلاف الذي نشب إلا أن بعض المعترضين على قرار عدم النزول لم يقتنعوا بالمقترح فالتزموا به أمام الملاّ مصطفى علناً لكنهم هيأوا أنفسهم للنزول بعائلاتهم ما إن تتاح لهم الفرصة. ولم يكد يمر سوى بعض الوقت، انشغل فيه الجميع بإعداد الطعام وإصلاح ما اهترأ من الأحذية وإطعام الدواب، حتى سُمعت صرخة امرأة مفجوعة من عمق الوادي تلتها أصوات أحجار ترتطم ببعضها.. ركض الجميع باتجاه مصدر الصرخة وإذا بهم أمام مشهد مرعب، فقد كانت المرأة تنزلق وتتدحرج من صخرة إلى صخرة وهي تصرخ ضامة ابنها الصغير إلى صدرها. تعالى الضجيج والصراخ من قمة الجبل ومن تحت القمة فاختلط بصراخ المرأة، التي كانت لاتزال

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تتدحرج وترتطم بالصخور الناتئة، المرة تلو الأخرى، حتى توارت عن الأنظار فجأة وتوقفت عن الصراخ. حل صمت يقطع الأنفاس للحظة تلاه أنين مكتوم قادم من تحت الحافة الحادة للجبل. نـزل بعـض المقـاتلين للبحـث عـن المـرأة.. ثـم عـادوا بهـا كومـة مـن العظام، وكانت لاتزال تحتضن طفلها المهصور بين ضلوعها. وفي إثرهم عاد من كان مـع المـرأة، ممـن جـازف بالنزول خلافًا للقرار، ومن بين أولئك كان زوج المرأة القتيلة، الـذي ظـل صائمًا عن الكلام والطعام حزينًا ينحب بصمت طوال الأيام التالية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(35)

شيروان يجلس وإلى جانبه المغني مخلص، بندقيته جنبه ويـده الكتـاب الصغير، يبدو غلاف الكتـاب ملطخـاً بالدم. يمسح شيروان بيده على بقع الدم المتيبس بحنان وكأنه يمسح على شعر ميديا.

شيروان (يرفع رأسه ويحدق بعيني مخلص):

ـ لقد عرفت، متأخراً، لماذا أنت فقط بيننا تمتلك هذا الصوت الشجي؟

مخلص (مستفهماً وهو يبتسم):

ـ لماذا برأيك؟

شيروان (يعود ليمسح على غلاف الكتاب):

ـ لأنك عاشق حقيقي وحين فقدت معشوقتك رحت تناجيها بالغناء، ومن كثرة المناجاة رق صوتك وأصبح شجياً يُبكي العشاق ويدمي قلوبهم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مخلص (بأسى وكأنه يواسي شيروان):

ـ نعم.. العشق يغسل أدران القلوب فتصبح شفافة رقيقة، والعشاق أصدقاء يبكون لبكاء بعضهم البعض.. (يبدأ مخلص بالغناء بهدوء ثم يتصاعد صوته).

تتقشع الغيوم تماماً. مواقد النار تشتعل بين الصخور يلتف حولها المقاتلون وهم يتحادثون مع بعض. يشاهد شيروان وهو يخرج من الكهف ومعه مخلص. يخرج آخرون أيضاً. يتصاعد الغناء شيئاً فشيئاً، ثم يشارك البعض في أغنية واحدة فتتصاعد أصواتهم صادحة تتردد أصداؤها في الفضاء الواسع لقمة الجبل.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(36)

في صباح اليوم التالي لوقوع ذلك الحادث المروع والمؤلم، وكانت آثاره الحزينة لاتزال مرتسمة على وجـوه الجميع، نزل الرتل من القمة حـتى السهل بشيء من اليسر، بعد أن كان الجو قد تغير للأحسن وتوقفت سيول المطر النازلة من على قمة الجبل. بعد مسيرة مرهقة دامت ساعات، انتحى شيروان جانبًا بعد أن شعر بألم قدمه اليسرى يزداد ويصبح مثل كي النار، مما زاد في شعوره بالمرارة والكآبة، ذلك الشعور الذي رافقه طوال الرحلة، وبالتحديـد منـذ دوّت تلـك الرصاصـة ومزقت صمت الوادي فانطلق راكضًا كالسهم بين الأدغال، حتى بلغ خيمة ميديا فوجدها ممددة والكتاب الصغير مهترئ الأوراق لايزال بين يديها، وكان رأسـها قـد هشـمته تلـك الرصاصـة القاتلة. وقف شيروان عند رأس ميديا مذهولاً.. جلس بهدوء على ركبتيه ومد يده ليضعها تحت رأس ميديا، الذي كان

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لايزال ينزف دمـًا سـاخنًا..تطلّـع في عينيها الخضراوين المفتوحتين، برهة ثم بدأ في أنين ونحيب كالمفجوع.

قلّب شيروان الكتاب الملطخ بدماء ميديا، وراح يقرأ دون تعـيين فوقـع نظره على نصائح الأمير ميكافيلي، تلك النصائح التي لم تنتفع بها ميديا أبدًا. أطبق صفحات الكتاب ونظر بعيدًا في ذلك الأفق المترامي وهو يتذكر مشهد ميـديا وهي ترتـدي بـزة عسـكرية وتتمنطق بصف طويل من الرصاص يلتف على صدرها وخصرها، قابضة بيد واحدة على بندقية البرنوالطويلة.. لكن كل هذا لم يكن ليخفي أنوثتها البـاهرة وقامتهـا الرشـيقة وشـعرها الطويل المنسدل على ظهرها مثل ذيل الفرس. حتى في أثنـاء المواجهـات المسلحة مع القوات الإيرانية. كـانت تعود باسمة ومبتهجة وكأنها عائدة من نزهة، وكان ذلك مصدر اعتزازه، بل اعتزاز الجميع وفي مقـدمتهم المـلاّ مصطفى، الذي حرص، بعد سلسلة من تلك المواجهات، على تعيينها قائدة لفصيل من الرجال. يتذكر شيروان كيف

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان الملاّ مصطفى يعامل ميديا بمودة وحنو وكأنها ابنة له، ويتذكر أيضاً كيف كانت ميديا أول من جاءه ببشارة الولادة، قبل أسبوعين، عندما دخلت عليه الخيمة فجراً بدون استئذان، فوجدته كعادته، متربعاً يدخن بمبسمه الطويل المصنوع من خشب الورد. كان مهموماً بأشياء كثيرة، من بينها تلك المصادفة القدرية في أن يحدث المخاض في مثل هذا الوقت العصيب، بعد انهيار مهاباد ووسط الفوضى والإضطراب والخوف من المجهول. فهل كانت تلك الولادة تعويضاً إلهياً عن كارثة الإنهيار تلك؟ لم ينتبه الملاّ مصطفى، لحظتها، لدخول ميديا إلا بعد أن صارت وسط الخيمة، فنظر إليها وكأنه حدس سبب مجيئها في هذا الوقت، فقال لها: بماذا تبشريننا؟ ضحكت ميديا وقالت له: مبروك وأريد البشارة! فنهض الملاّ مصطفى عجلاً، قبّلها من جبينها وخرج قاصداً الخيمة الأخرى، ثم عاد وقد تغيرت ملامح وجهه.. عادت إليه تلك الابتسامة الخجولة ولكن المعبرة، التي طالما لمحتها ميديا على محيّاه وهو يمازحها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أو يمازح بعض المقربين إليه. كـان شيروان قد جاء في تلك الأثناء، فهو يعـرف أن أم عبيـد الله في حالـة مخاض، وعندما عاد الملاّ مصطفى وجدهما يجلسان جنب بعض فحياهما بسرور وطلب من ميـديا أن تـذهب للاعتناء بالمولود. ثم فاجأ شـيروان بالسؤال: ماذا نسميه؟.. ارتبك شيروان لحظة ثم نهض ليصافح الملاّ مصطفى ويبـارك لـه. فعـاد المـلاّ مصـطفى لسؤاله: ماذا نسميه؟ تردد شـيروان ولم يجرؤ على الكلام، فـردد المـلاّ مصطفى مع نفسه: نسميه سعد.. أو.. سعيد.. لا.. مسعود.

بعد ولادة مسعود، التي كانت أشبه ببشارة انبثقت من قلب الظلمة، ازداد حنو الملاّ مصطفى على ميديا، التي انشغلت بالمولود طوال الأيام التالية، فكان يكلفها أحياناً بأن تجمع له أنواعاً من النباتات المنتشرة في السفوح، فقد كان خبيراً بها، يعرف مذاق وطعم كل واحدة منها ولأي علاج تصلح، فهذه العشبة التي تشبه زهر الرمان لعلاج مغص المعدة والأمعاء، وتلك، التي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يميـل لونهـا إلى الصـفرة، لعـلاج الإسهالات، والثالثة، الخضراء طويلـة الساق، لعلاج الربو وضيق التنفس.. وتلك وتلك، وكان يحتفظ دائماً بشيء من هذه الأعشاب التي تجلبها له ميديا من السفوح والوديان، بعد أن ينشرها في الشمس ثم يطحنها بيده.

وفي واحدة من المـرات تـأخرت ميديا في العودة إلى المعسكر، وكانت ذاهبة لتجمع له الأعشـاب والزهـور البرية، وترافق ذلك مع ورود معلومات عن تقدم قوة إيرانيـة باتجـاه بلـدة نغره، شمال مهابـاد، فخشـي المـلاّ مصطفى عليها واستنفر فصيلاً كاملاً من المقاتلين للبحث عنها.. ولم يهدأ يومها عن الذهاب والمجـيء داخـل خيمته إلا بعد أن عادت فجلس يستمع إليهـا بسـرور وهي تـروي لـه كيـف اسـتطاعت أن تتحايـل عـلى القـوة الإيرانية وتشاغلها بسلاحها الشخصي حتى مجيء المقاتلين الذين بعث بهم يبحثون عنها، فأفلتت من الموت. كان يسميها المثقفة لأنها لا تترك كتاباً يقع بين يديها دون أن تقرأه، وكانت تتفاخر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أنها قرأت نصف مكتبة والدها الشيخ محمود، الذي قتله الجندرمة الأتراك، وكان الملاّ مصطفى يمازحها قائلاً لا يمكن الجمع بين الثقافـة والقتـال.. فترد عليه قائلة من الثقافة تعلمـت القتال، فلولا الثقافة لما كنت أعرف شيئًا عن شعبي وعن محنته ونضاله. فيقول لها جادًا، هذه المـرة، وهـو يضرب الأرض بقدمه: محنة شعبك لا توجد في صفحات الكتب بل على هذه الأرض التي ولد فيها ويراد اقتلاعه منها..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(37)

يصل الجميع تباعًا فيتوزع بعض المقاتلين على التلال والصخور المطلة على الوادي. يبدو الإرهاق والتعب على وجوه الغالبية. ينشغل البعض بإيقاد النار. بعض آخر يهتم بإطعام الدواب. نساء يقمن بإعداد الطعام. يُشاهد الطبيب محمود وهو يعالج قدم أحد المقاتلين يقف إلى جانبه العجوز رحمان وهو يمسك بيده كمية من الشاش الطبي.

الطبيب محمود (للمقاتل وهو مشغول بعلاج قدمه):

ـ عليك أن تحذر.. قدمك مصابة.

العجوز رحمان (يؤكد كلام الطبيب):

ـ كي لا يبترونها لك مثلي (يشير إلى ساقه المبتورة).

المقاتل (باستفهام الحائر):

ـ وكيف أحذر يا دكتور؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطبيب محمود (وهو ينتهي من علاج قدم المقاتل):

ـ لا تتركها تتعرض للبرد.. لفها دائماً بجوارب الصوف.. دفئها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(38)

يبدو شيروان من بعيد وهو يقطف الزهور ويجعل منها إضمامه. كما يبدو الملاّ مصطفى وهو يتفقد المقاتلين ويمازح كبار السن منهم، ثم وهو يشارك بعضهم الطعام.

شيروان، وهو يواصل قطف الأزهار، يسمع أنيناً أو بكاءاً خافتاً، يلتفت ناحية الصوت فيرى المقاتل الذي انزلقت زوجته من قمة الجبل، وهو جالس القرفصاء تحت شجرة، يضع رأسه بين يديه ويبكي.

شيروان (وهو يقترب من المقاتل، يضع يده على كتفه فيرفع المقاتل رأسه فتبدو عيناه مغرورقتان بالدموع):

ـ ألا تؤمن بالقضاء والقدر؟ (يهز المقاتل رأسه إيجاباً) كفى بكاءاً إذن وانتبه لنفسك. انهض معي (يمسك شيروان بيد المقاتل ويساعده على النهوض) انهض واقطف الأزهار مثلي، وضعها على قبر زوجتك المرحومة وطفلك المسكين.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المقاتل (وهو ينهض بتكاسل. يتحدث بأسى):

ـ قبرها؟.. قبرها هناك.. بقي على القمة.

شيروان (وكأنه يحدث نفسه):

ـ لابأس.. لابأس.. تعال اقطف الأزهار لها.. ميديا أيضًا قبرها بعيد عني.. بقي في واد آخر، وها أنا أقطف لها الأزهار كل يوم. (يتوقف عن القطف يلتفت للمقاتل) هي تعرف ذلك.. نعم تعرف.. وأنت ألا تعرف أن الأرواح تحوم حولنا أينما ذهبنا؟ أرواح من نحب؟ انظر.. انظر (يؤشر شيروان نحو عصفور يمرق فوق شجرة صدفة) انظر قد تكون روح زوجتك أو ابنك أو... روح ميديا العزيزة.

(يلتفت المقاتل إلى شيروان بتعاطف ويعانقه بحرارة).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(39)

عندما وصلوا بلدة بارزان، بعد نحو أسبوع من السير على الأقدام فوق سلسلة من الجبال الوعرة ووسط ظروف جوية ومناخية غاية في السوء، كان العشرات من المقاتلين، وخاصة من كبار السن والمرضى قد أنهكوا تماماً، ولم يعد بوسعهم تحمل المزيد من الإرهاق لكن لم يدر في خلد أحد، بما في ذلك الملاّ مصطفى نفسه أن مرحلة أخرى من المسير أكثر قسوة وأشد متاعب وصعوبات تنتظرهم قريباً، فبعد وصولهم بيوم واحد أرسل الملاّ مصطفى مندوباً لجس نبض القوات الحكومية العراقية المرابطة في المدن الكوردية وعلى مفترقات الطرق المؤدية إلى الجبال وقد علم المندوب، حتى قبل أن يصل هدفه، من أحد ضباط حامية أربيل، وهو ضابط عربي يرتبط بصلات صداقة وثيقة مع الملاّ مصطفى، اسمه ملازم خضر، أن أوامر صارمة كانت صدرت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لتلـك القـوات بمطـاردة المقـاتلين العائـدين مـن مهابـاد لاعتقـالهم أو منعهم من دخول الأراضي العراقية. كذلك علم المندوب أن هناك اتفاقًا قد تـم توقيعـه بيـن حكومـتي بغـداد وطهران، يقضي بتسليم مـن يجـري إلقاء القبـض عليـه مـن المقـاتلين، وخاصـة قيـاداتهم، إلى الحكومـة الإيرانية فوراً.

لم ينتظر الملاّ مصطفى، بطبيعـة الحـال، وقـوع مقاتليـه بيـن فـكي الكماشـة فـأمر فـوراً بالاسـتعداد لمواصـلة المسـيرة نحـو الحـدود السـوفيتية، كمـا أمـر بـالتخلي عـن الأسلحة الآلية الثقيلة والاكتفاء ببنادق البرنو الخفيفة، بعد أن جرى توزيـع العتـاد عـلى المقـاتلين. وفي ليلـة ممطرة وصاخبة بالرعود والبرق بدأ الملاّ مصطفى ومعه ما يقرب مـن خمسمائة مقاتل، المرحلة الثانية من مسيرتهم الأسطورية.

قبل استئناف الرحلة بوقت قصير، كان الملاّ مصطفى قد جمـع قـادة الفصـائل وبعـض المستشـارين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

والمساعدين، وأبلغهم سلسلة من الوصايا والقرارات، التي توصل إليها في ضوء دراسته لتجربة المرحلة الأولى من المسيرة، إضافة إلى معرفته بالصعوبات التي سيواجهونها في المرحلة القادمة. أعاد عليهم تلك العبارة التي قالها لهم قبيل الرحيل عن مهاباد: سوف تنهكون وتجوعون وتمشون حفاة. ثم أبلغهم بضرورة أن يستعدوا للرحلة نفسياً أولاً، فالصعوبات، التي تنتظرهم، كما قال، لن تقتصر على التعب والإرهاق والجوع والعطش، بل وكذلك على اليأس والخوف والأنانيات وحتى الخيانات والمواجهات المسلحة، وهذه كلها تحتاج، كما قال، لقوة إصرار وعزيمة وصبر طويل على التحمل، وقبل ذلك الإيمان بقضية الشعب وبعدالة هذه القضية، فنحن ذاهبون، كما شدد الملاّ مصطفى على ذلك القول، ليس هرباً من عدو أو من معركة أو لحماية أرواحنا، إنما لتجنيب هذه الذخيرة من المقاتلين الشجعان معركة ليست متكافئة وظروفاً ليست مواتية لمثل هذه المعركة.. فنضال

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شعبنا، مثل نضالات كل الشعوب، لا يتوقف على معركة معينة، بل على سلسلة طويلة من المعارك ستحتاج لأجيال وعقود من السنين، ونحن جيل من هذه الأجيال، مهمتنا إبقاء جذوة النضال متقدة في القلوب والعقول، حتى يتحقق حلم شعبنا في الحرية والاستقلال.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(40)

انطلقت المسيرة بعد غروب الشمس بقليل، وكان توقيت الانطلاق أول القرارات التي اتخذها الملاّ مصطفى، فالمسير في هذه المرحلة من الرحلة سيكون في الليل فقط أما النهار فسيكون استراحة تنقضي في الكهوف والمغارات أو في الوديان القصية، تجنباً لاحتمالات الانكشاف لسكان القرى أو للقوات الإيرانية.

لم تكن المتاعب والصعوبات التي واجهتهم في المرحلة الأولى من المسيرة، شيئاً يذكر أمام تلك التي سيواجهونها في هذه المرحلة، ولأنهم كانوا مدفوعين بغريزة البقاء والبحث عن منفذ أو مخرج من مأزق ذلك الظرف التراجيدي اللعين، الذي خيم على مصائرهم وأحلامهم، منذ لحظة انهيار جمهورية مهاباد، فقد كانوا على استعداد لمواجهة الأهوال مهما كان الثمن، من أجل بلوغ الهدف. وكان الملاّ مصطفى بالنسبة لهم مثالاً لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يمكن تجنب تأثيره الطاغي على نفوسهم وعقولهم، سواء في الشجاعة والجرأة ومواجهة الصعاب أو في الإيمان والصبر وتحمل الأهوال. وكانت مجرد رؤيته وهو يتمنطق بصفوف الرصاص شاكًا خنجره في وسطه حاملاً بندقيته على كتفه الأيسر وحقيبة الصوف اللباد الثقيلة المليئة بالمؤن وأكياس الأعشاب والتبغ والحاجيات الشخصية الأخرى، على كتفه الأيمن، تكفي لحملهم على مواصلة السير خلفه ومواجهة الصعاب والأهوال. وكانت أولى تلك الأهوال التي واجهتهم في المرحلة الجديدة من الرحلة اضطرارهم للسير أثناء الليل، في طرق ومسالك جبلية وعرة ومحفوفة بالمخاطر، لم تتمكن حتى الدواب المدربة من السير عليها، وقد خسروا لهذا السبب وحده، نصف دوابهم بما حملت من مؤن ومياه وأسلحة، إذ انزلقت من أعالي الجبال وحافاتها إلى قعر الوديان السحيقة، آخذة معها بعض الضحايا من الجرحى، وهو الأمر الذي أجبرهم على اتخاذ قرارات قاسية من أجل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

استكمال المسيرة بأسرع وقت ومحاولة استباق القوات الإيرانية، التي كانت تطاردهم من جبل إلى جبل ومن واد إلى واد آخر.

وكان من بين أقسى تلك القرارات، التي اتُخذت ونُفذت، بعد أسبوع واحد فقط من بدء المسيرة، قرار التخلي عن الجرحى في منتصف الطريق.. وبالتحديد عند بلوغهم سلسلة جبال زكاروس، أي بعد أن تأكد لهم أن اجتياز هذه السلسلة شديدة الوعورة، والتي يصل ارتفاع الثلوج فوق قممها، أكثر من مترين، أمرًا يشبه المستحيل بالنسبة لهم والمستحيل بعينه بالنسبة للجرحى ممن كانت إصاباتهم تمنعهم من السير على أقدامهم.

لم يكن اقتراح قرار التخلي عن الجرحى أو تخلفهم عن المسيرة، صادرًا عن القيادة في واقع الحال، بل كان الجرحى أنفسهم هم أصحاب ذلك المقترح فقد توصلوا إليه، بعد أن وجدوا أنهم أصبحوا يشكلون عبئًا لا يطاق على الآخرين ويتسببون في تباطئ المسيرة واحتمالات تعرضها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

للمخاطر. لم يوافق الملاّ مصطفى على المقترح، أول الأمر، إلا أن إصرارهم على ذلك حمله، في نهاية المطاف، على الموافقة لكنه اشترط أن يجري إيصالهم إلى إحدى القرى على الطريق من أجل أن يجدوا من يهتم بهم هناك، وهو أمر حدث في الواقع عندما وافق أهالي إحدى القرى على إيواء ثلاثة من الجرحى في بيوتهم، وتوزع الآخرون على القرى الأخرى التي مروا بها في الطريق.

كان وداع الجرحى لأخوتهم ولأصدقائهم مؤثراً إلى درجة جعلت الملاّ مصطفى يخرج عن طوره، فيمسك ببندقيته ويطلق الرصاص في الهواء، تحية لأولئك الذين ذهبوا طوعاً لأقدارهم، كي تبلغ المسيرة هدفها النهائي.

عندما شاهد شيروان الملاّ مصطفى وهو يطلق الرصاص في الهواء لوداع الجرحى، عادت إلى ذاكرته تلك الصورة المحفورة منذ سنوات الصبا في ذهنه، صورة الملاّ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مصطفى يوم دخل أربيل برفقة اثني عشر مقاتلاً يحيطون به ويتمنطقون بأحزمة الرصاص ويحملون بنادق البرنو القديمة ذات السبطانات الطويلة، وكانوا يعتمرون العمامات الحمراء والبيضاء، التي تميز البرزانيين عن سواهم. يتذكر شيروان في هذه اللحظة بالذات كيف خرج، يومها من المدرسة مع أقرانه التلاميذ لرؤية الملاّ مصطفى، فشاهده، رغم قصر قامته، مثل عملاق يخرج من الحقول المزدانه بالأزهار البرية، ممتطيًا حصانه الأبيض وهو على رأس مجموعة مهيبة من الحراس الشخصيين.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(41)

قبل أن يواصلوا مسيرتهم صعوداً باتجاه قمة زكاروس، لمح الملاّ مصطفى، شيروان جالساً بمفرده جنب شجرة صغيرة، تبدو عليه ملامح الحزن والكآبة. ذهب إليه ووقف فوق رأسه، لكن شيروان كان أشبه بالغائب عن الوعي في تلك اللحظات. انتبه فجأة فنهض وهو يبتسم خجلاً. حياه الملاّ مصطفى ودعاه للعودة إلى الجلوس مكانه وجلس جنبه، ثم سأله عن الجرح في قدمه وما إذا كان لايزال متورماً ويؤلمه. هز شيروان رأسه إيجاباً، ثم قال بأسى: أشعر وكأن هذا الجرح سيقتلني. حاول الملاّ مصطفى أن يخفف من وطأة التشاؤم تلك، مع أنه كان قد أدرك منذ آخر مرة شاهد فيها الجرح في قدم شيروان، أن حالته خطرة وستتفاقم لا محالة بسبب البرد والسير لساعات طويلة على الثلوج، فقال له مازحاً: خرجت من جميع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المعارك سالماً ثم يقتلك مجرد جرح في قدمك؟

صمت شيروان كي لا يضطر لإخبار الملاّ مصطفى بأن هذا (المجرد جرح) في طريقه لأن يتحول إلى عاهة مستديمة وقد يقضي عليه حقاً. فحدس الملاّ مصطفى من صمت شيروان أنه يعرف حقيقة ما ينتظره وينتظر قدمه المتورمة، فربت على كتفه وذهب من فوره نحو خيمته. استدعى الطبيب محمود، ذلك الشاب، الثلاثيني، الذي كان ترك دراسة الطب في جامعة بغداد والتحق بهم في مهاباد، وكان الوحيد الذي يرافقهم ويسهر على المرضى والجرحى، وهو يحمل، على الدوام، حقيبة سوداء صغيرة لا تحوي غير أدوية فقيرة وكمية من الأعشاب اليابسة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(42)

يجلس الملاّ مصطفى وسط الخيمة يلف سيجارة من كيس التبغ أمامه. فيدخل عليه الطبيب محمود.

الملاّ مصطفى (وهو يدعو محمود للجلوس):

ـ تفضل.. هل عاينت قدم شيروان.. يبدو أن حالته سيئة.

الطبيب محمود (بامتعاض):

ـ نعم كشفت عليه وحالته متقدمة.. أخشى أن نضطر لبترها.

الملاّ مصطفى (يسحب نفساً عميقاً من سيجارته):

ـ هل من حل غير هذا.. هل يمكن الانتظار حتى نصل؟

الطبيب محمود (يهز برأسه دلالة النفي):

ـ أبداً.. لدينا أربعة من المقاتلين، غير شيروان، ظهرت على أقدامهم أعراض الكنكرينا، ولابد من علاجهم سريعاً، لأن الانتظار معناه امتداد الكنكرينا،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لذلك أرجو أن تحدّث شيروان وتقنعه لأنني سبق وأن حدثته لكنه طلب التريث.

الملاّ مصطفى (يائساً):

ـ مادام الأمر بهذه الخطورة... غداً انشاء الله.

(يخرج الطبيب محمود)

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(43)

تبدأ المسيرة صعودها، مرة أخرى، باتجاه قمة زكاروس، ويترافق ذلك مع أسوأ مناخ يشهدونه طوال رحلتهم. يبدأ المطر، مصحوبًا برذاذ الثلج، يتساقط بكثافة فتتحول الطرق الصاعدة نحو القمة إلى أوحال نازلة تمنع المسير. يستمر الهطل فترة مصحوبًا برياح صقيعية باردة تدفعهم إلى الاحتماء بالصخور والأشجار. تُسمع نداءات بالتريث (توقفوا... توقفوا.. لا أحد يصعد) ثم يبدأ بعض المقاتلين باستخدام حبال غليظة يتمسكون بها الواحد بعد الآخر، في سلسلة طويلة تضمن بقاءهم متقاربين من بعضهم البعض. تهدأ الريح ويخف هطل المطر تُسمع نداءات جديدة (تحركوا.. هيا تحركوا بسرعة) فيبدأون بالصعود وهم ممسكون بالحبال الغليظة. يجاهد بعض المقاتلين لدفع الدواب إلى الصعود غير أنهم يفشلون فقد أفلتت دابة وعادت القهقري إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الوادي، تبعتها ثانية انزلقت قوائمها فسقطت وتدحرجت مع ما تحمل من مؤن وجرادل مياه الشرب. بلغ الرتل الأول قمة الجبل فشد طرف الحبل الغليظ بشجرة ضخمة مما سهل على الباقين الصعود.

عندما بلغوا القمة، وكانت الشمس قد هبطت في الجهة الثانية من الجبل، كانت الرياح الصقيعية بانتظارهم فتفرقوا للاحتماء بالصخور والمغارات والكهوف. ساعات طويلة وهم تحت رحمة هذه الرياح، التي كان يمكن أن تقذف بالإنسان من فوق القمة، إن لم يكن متمسكًا بحجر أو محتميًا به. بعد أن خفت الرياح قليلاً وبدأت خيوط الفجر تكشف المكان، أمر الملاّ مصطفى باستئناف المسير وسار في المقدمة وهو يحمل بندقيته على كتفه ويضع على الكتف الأخرى حقيبة اللباد المصنوعة من الصوف. يتبعه على بعد أمتار قليلة، شيروان مع اثنين من المقاتلين أمرهما الملاّ مصطفى بمساعدته عند الضرورة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم تكد تمضي سوى ساعات قليلة حتى بدأ التعب يدب في أجساد الجميع بسبب صعوبة الطريق جـراء تراكـم الثلوج فطلب البعض ساعة للاستراحة إلا أن تلك السـاعة امتـدت سـاعات أخرى انشغلوا فيها بدفن مقاتلين اثنين من كبار السن كانا فارقا الحياة جراء الإرهاق والإعياء. كان الملاّ مصطفى يدرك، وهو يحث الخطى محاولاً قطع أطول مسافة قبل غروب الشـمس، أنهم لن يهبطوا عن ظهر تلك القمة اللعينة بأقل من عشرة ضحايا وخاصة من كبار السن أو ممن كانوا يعانون مـن إصـابات وجـروح وقـروح في أقدامهم، إلا أن من كان يشغله أكثر هو شيروان بالذات، ففي آخر مـرة لمحه فيها وهو يسير خلفه، وجـده يتكئ على كتف أحد المقاتلين وعلى وجهه علائم معاناة من ألم شديد. وها هو ينظر إليه الآن مرة أخرى فيراه يترنح في مشيته وهو يسحل قدمه المصـابة سـحلاً عـلى الثلـج. فيـأمر بـالتوقف عـن المسـير ويطلـب مـن محمود الطبيب تنفيذ مقترحه السابق. كان محمود الطبيب الشاب، يسـابق

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الرتل بين الحين والآخر ثم يعود إلى الخلف في حركة دائبة، كي يكون حاضرًا إذا ما احتاجه أحد لعلاج أو لمساعدة. وخلال الاستراحة الأخيرة كشف محمود على قدم شيروان فوجدها في أسوأ حال، فذهب وأخبر الملاّ مصطفى أن الحل الوحيد المتبقي أمامه هو بتر قدم شيروان لمنع الكنكرينا من التمدد أكثر لكن شيروان طلب تأجيل الأمر حتى ينزلون عن قمة الجبل.

أوقف الملاّ مصطفى، شيروان وطلب منه الانصياع لقرار الطبيب فهو أعرف بالتوقيت المناسب، كما قال له، ثم إن هناك مسافة طويلة متبقية قبل نزول القمة، والانتظار في هذه الحالة معناه الانتحار. رضخ شيروان أخيرًا لنصائح الملاّ مصطفى وبدأ محمود تحضير أدواته لإجراء عملية البتر بأقصى سرعة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(44)

شيروان، ممدداً على بساط داخل الكهف، يجلس بقربه الملاّ مصطفى واثنان من المقـاتلين. يبـدو الطـبيب محمود مشغولاً بتسخين مشرط على موقد النار، بقربه كميـة كبـيرة مـن لفافـات الشـاش الطـبي والمـواد المعقمة.

الطبيب محمود (للمقاتلين):

ـ انزعا اللفافات والجـوارب عـن قدمـه (يـنزع المقاتلان اللفافات والجوارب فتظهر قدم شيروان وكأنها خشبة محترقة) جاهزون؟

يمد الملاّ مصطفى يده إلى خشبة صغيرة ملفوفة بالشاش ويضعها بين أسنان شيروان، فيما يمسك هو بكتف شـيروان والمقـاتلان بسـاقيه. يبـدو المشرط وقد أصبح قطعة من نار. يتقدم الطبيب محمود وبيده المشرط.. تظهر قدم شيروان وهي تنز قيحًا.. ثم يُسمع هسيس النار في اللحم. الهدوء يسود المكـان.. ثـم تنطلـق صـرخة شيروان.. صرخة حادة تتردد أصداؤها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في زوايا المنحدر والـوادي، بعـدها يعود الصمت ليسود ثانية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(45)

يتقاطر المقاتلون وراء بعض في سلسلة طويلة. يبدو الإرهاق على الجميع. يشاهد مقاتل وهو يشرب آخر قطرات الماء لديه. مقاتل آخر يتوقف ثم يسقط مغمياً عليه فيهرع القريبون منه لنجدته. يصل الطبيب محمود يحاول إعادة المقاتل لوعيه.

الطبيب محمود (موجهاً الكلام للمقاتلين من حوله):

ـ أعطوني ماء بسرعة.

يتقدم مقاتل فيعطيه مطريته. يرجها محمود فيكتشف أنها شبه فارغة.

الطبيب محمود (للمقاتل):

ـ فارغة!

المقاتل (لمحمود.. بنفاذ صبر):

ـ هذا آخر ما لديّ!

(يصل نامق فيعطي محمود مطرية فيها ماء.. يقرّب محمود المطرية من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فم المقاتل المغمي عليه، فيكتشف أنه فارق الحياة).

الطبيب محمود (بأسى وكأنه يحدث نفسه):

ـ لا إله إلا الله. (يغمض عيني المقاتل ببطن كفه).

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(46)

أفاق شيروان من غيبوبته على أصوات أزيز رصاص تتردد أصداؤه في جنبات الوادي، فشعر بالفزع عندما وجد نفسه وحيداً ممدداً على بطانية تحت ظل شجرة جوز ضخمة. حاول أن ينهض فامتدت إلى كتفه يد أعادته برفق. قال له محمود، حمداً لله على سلامتك... فوجئنا بقوة إيرانية كامنة في سفح الجبل فكان الاصطدام بها اضطرارياً، لكن اطمئن فنحن بعيدون عن ساحة المعركة... ثم سأله ما إذا كان يشعر بالألم، فقال له شيروان نعم ولكن ما يشغلني ليس الألم، إنما كيف سأمشي وأواصل معكم المسيرة.. ابتسم له محمود قائلاً: لا تهتم بذلك لايزال لدينا بعض الدواب. عاد الرصاص يلعلع في أجواء الوادي.. فأجفلا معاً ثم خف شيئاً فشيئاً حتى ساد الهدوء تماماً. بعد حوالي النصف ساعة، استعاد فيها شيروان وعيه وجلس ساناً ظهره

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على جذع الشجرة، بدأ المقاتلون يتقاطرون على الوادي من التلال المحيطة وهم يحملون بعض الجرحى. وفي أثرهم عاد الملاّ مصطفى يحيط به بعض المقاتلين. توقف عند شيروان لحظة ليطمئن عليه، ثم أمر بالاستعداد سريعاً لاستئناف المسيرة، قبل أن يرسل الإيرانيون تعزيزات إلى المنطقة.

تزايدت الصعوبات بعد تلك المواجهة فقد قتل خلالها ثلاثة من المقاتلين وأصيب أربعة ما لبث اثنان منهم أن توفيا متأثرين بجروحهما البليغة. فزعت بعض الدواب في أثناء تبادل إطلاق النار، ففرّت هاربة وهي تحمل مؤناً وجرادل مياه الشرب فتفاقمت المحنة جراء النقص الحاصل أصلاً في المؤن والمياه.

بعد يومين من المسير شبه المتواصل بلغ الإرهاق بالجميع، حداً مروعاً ولم يكن ذلك بسبب وعورة الطريق ومنزلقاته، التي عجلت باهتراء أحذية المقاتلين وتشقق أقدامهم، بل وكذلك من جراء النقص الحاد في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كميات الطعام والمياه، الأمـر الـذي اضطر البعض منهم للشرب من مياه البرك المتجمعـة مـن سـيول الثلـوج والأمطار فأصيبوا بعد ساعات فقـط بإسهالات وآلام معوية منعتهـم مـن مواصلة المسير.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(47)

تذكر محمود وهـو يعـالج بعـض المصابين بدواء الأعشاب، عبارة الملاّ مصطفى عند انطلاقهم من مهابـاد، وبعد ذلك من بارزان، سوف تتهكون وتجوعون وتمشون حفاة.. وها هم حقًا يدفعون ثمن طموحهم للخلاص والبقاء على قيد الحياة، ولكنه كان ثمناً مروعًا وقاسيًا. فقبيل بلـوغ الحـدود السوفيتية بمسافة قصيرة كانوا قطعوا مـا يزيـد عـلى الثلاثمائـة وخمسـين كيلومترًا سيرًا على الأقدام، جالوا فيها حدود ثلاث دول، فمـن مهابـاد في إيران اضطروا إلى دخول الأراضـي العراقية، ومنها إلى الأراضي التركية مرة أخرى وها هم يقطعون بقيـة المسـافة بيـن الأراضـي الإيرانيـة والحدود السوفيتية. كل هذا عبر جبال زكاروس وثلوجها وعبر الطرق الوعرة والمسـالك الضـيقة والخطـرة، فلـم تهترئ أحذيتهم فقط من جراء ذلك إنما ثيابهم وأقدامهم وحتى صبرهم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على مواصلة المسيرة. فمن نقـص المياه واضطرارهم للشرب من البرك عانى العديد من المقاتلين من آلام الحكاك الذي أصيبوا به، أما خسائرهم البشرية فقد كانت كبيرة هي الأخرى، فمن بين نحو خمسمائة مقاتل رافقوا الملاّ مصطفى، في ذلك الانسـحاب الأسطوري، استشهد نحو ثلاثين في القتال مع القوات الإيرانية، ومات أكثر من عشرين آخرين بسبب جراحهم أو جراء الإعياء الذي أصابهم، وفقد أكثر مـن عشـرة مقـاتلين أقـدامهم أو سـيقانهم بعـد بترهـا إثـر إصـابتهم بالكنكرينا جراء مسيرهم على الثلوج مسافات طويلة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(48)

مقاتلون يبللون شفاههم من مياه بركة على الطريق، أحدهم يشرب فينهره الآخرون، الإرهاق بادياً على وجوه الجميع. يشاهد الطبيب محمود وهو يغير ضماد جرح أحد المقاتلين. يشاهد شيروان على ظهر دابة، وبندقيته على كتفه. الملاّ مصطفى يسير في المقدمة تحيط به ثلة من المقاتلين.

تُسمع نداءات مختلفة، آتية من مقدمة الرتل (النهر.. النهر) يركض البعض لصعود التلة. يبدو نهر آراس خلف التلة مباشرة وهو يجري هادراً. تتصاعد النداءات ويعلو الضجيج وتعم الفرحة. المقاتلون يعانقون بعضهم بعضاً. يركض البعض نحو الملاّ مصطفى فيستقبلهم وهو يفرد ذراعيه ليعانقهم. بعض المقاتلين يبكي وهو يعانق الملاّ مصطفى، فيما الملاّ مصطفى يبتسم ويربت على أكتافهم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(49)

وقف شيروان، وهو يتـكئ عـلى عكاز نحته له أحد المقاتلين من غصن شجرة جوز، على تلة تشرف على نهر أراس يتأمل جريان المياه الهادر، كانت نظراتـه تائهـة وغائمـة... هـذه هي الحياة، هكذا تجري مسـرعة فتأخـذ معها الأيام والسنين والأعمار والمصائر دون عـودة، حـدّث شـيروان نفسـه وطيف ميديا يرفرف أمام عينيه... ظل يحدق في الفراغ فيما الطيف يرفرف كفراشة لا يريد الإمساك بها كي لا يتبدد الحلم.

تنفس بعمق وكأنه عاد إلى الوعي الآن، عندما سمع صوت الملاّ مصطفى يأتيـه مـن بعيـد وهـو يـأمر بعـض المقاتلين الشباب بعبور النهر وربـط طرف الحبل الطويل والغليظ بالصخور على الضفة المقابلة، فعبور ذلك النهر الهادر مخاطرة بحد ذاتهـا، بـل هـو مغامرة محفوفة بخطر داهم بالنسبة للبعض من كبار السن والجرحى. تطلع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شيروان صوب المقاتلين الشباب، الذين بدأوا يهبطون من الجـرف الصـخري للنهرِ وهم يمسكون بأيـدي بعضـهم بعضاً، ساحبين معهم طـرف الحبـل الغليظ، الذي ربطوه بإحكام على جذع شجرة ضخمة على الضفة الإيرانية. كان صوت الملاّ مصطفى لا يزال يأتيه من بعيد، تارة وهـو يوجـه الأوامـر للمقاتلين وأخرى وهو يتأمـل وكأنـه يتذكر طيف مسعود الصغير الذي رآه آخر مرة وهو ملفوف في مهد من الصوف، فيأتي معه طيف ميديا وصوت الرصاصـة الـتي دوّت في الـوادي، فهشـمت رأسـها الصـغير، صـوت الهسـيس الخـافت لـذلك المشـرط المحمي على النار، وهو يحزَّ لحـم قدمه اليمنى. صـوت الرصـاص في المعركة الأخـيرة.. صـوت العصـفور الوحيد الذي ظل يغرد عندما تركـوا ميديا تحت كومة الأحجار الكلسية، التي رتبها بانتظـام فـوق قبرهـا.. صـوت الصرخة المكتومة لتلك المرأة، وهي تحضن طفلها بين ضلوعها نازلة صخرة بعد صخرة في عمق الـوادي.. ثـم صارت تأتي الألـوان، ألـوان أشـجار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

البطم الخضراء الداكنة لحظة فتح عينيه للمرة الأولى بعد غيابه عن الوعي.. ألوان الأعشاب التي كان ينشرها الملاّ مصطفى على بساط خارج خيمته كي تتيبس فيحولها إلى أدوية يحتفظ بها في صرر وعلب من النايلون.. ألوان تلك الراية التي ارتفعت في ساحة جوار جرا فارتفعت معها أعناق الآلاف من البشر التواقين للحرية والانعتاق.. ألوان العيون الخضراء والزرقاء والسوداء، التي هطلت منها الدموع مدرارة في تلك اللحظات الصاخبة. جاءه الصوت.. صوت الملا، مرة أخرى، وهذه المرة من قريب.. بل هو يناديه الآن.. تطلّع نحو مصدر الصوت فكان الملاّ مصطفى لا يزال مقرفصاً جنب مهد مسعود الصغير يلف آخر سيجارة من كيس التبغ ليدخنها بمبسمه المصنوع من خشب الورد قبل عبور النهر.. يا لهذا الرجل العنيد، قال شيروان، من أي حجر كوردستاني منحوت؟.. أي قلب نابض وحار يتحرك بين ضلوعه؟.. أية روح مقدامة وجريئة روحه تلك؟..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هل كان يمتلك كل هذا اليقين بالوصول إلى الهدف عندما خطط للمسيرة وهو في قلب المعمعة وفي زحمة مشاعر الخيبة والانكسار والمرارة لضياع مهاباد؟ هل كان يدرك حجم الأهوال والمخاطر التي كانت بانتظاره، ومع ذلك أصر على اقتحامها حتى بلغ مبتغاه وأعطى درساً لأعدائه وخصومه، ولرفاقه أيضاً، عن قوة المراس وشدة الصبر وقوة الأيمان وشجاعة الرجال حين يؤمنون بقضايا شعوبهم وبعدالة هذه القضايا ومشروعيتها؟ تزاحمت الأفكار والأسئلة في ذهن شيروان وهو ينظر إلى ذلك الكهل المقرفص على ضفة نهر أراس يلاطف ولده الرضيع في مهده ويدخن آخر سيجارة بمبسمه الطويل المصنوع من خشب الورد، قبل أن يعبر النهر إلى الضفة الأخرى... يتأمله بحنو وخشوع وامتنان، فها هم أخيراً يبلغون هدفهم، ها هم الآن يقفون عند ضفة نهر أراس، الذي يفصل الأراضي الإيرانية عن أراضي أرمينيا السوفيتية، حيث القوات الإيرانية، التي كانت تطاردهم من جبل إلى جبل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ومن واد إلى آخر، ستصل بعد أيام من عبورهم النهر فلا تجد على تلك الضفة سوى جثتي رجلين غرقا أثناء عبور النهـر وبعـض الـذخائر والبنـادق المعطلة.

الإصدارات:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الإصدارات:

1. **ساعة ويذبل الزيتون**، مجموعة شعرية باللهجة العراقية - بغداد 1976
2. **الحزب الشيوعي العراقي والقضية الفلسطينية** ، دراسة 1987
3. **مليت**، مجموعة شعرية باللهجة العراقية - دمشق 1992
4. **الموقف الإسلامي من المرأة**، دراسة مخطوطة 1988
5. **عطر الغايب**،مجموعة شعرية باللهجة العراقية - بيروت 2000
6. **مسار السنونو**، رواية سينمائية بيروت 2003
7. **خارج المتن**، مقالات في الثقافة والمثقف ، بغداد - 20104
8. **تحولات شارع مريدي**، قصص، "ألف ياء" 2025
9. مئات المقالات والدراسات السياسية والثقافية، في صحف ومجلات عراقية وعربية 1980 ، 2018

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جمعة الحلفي

جمعة الحلفي شاعر وكاتب وصحفي عراقي. بدأ العمل في الصحافة في العام 1973 بجريدة "طريق الشعب" وأصدر مجموعته الشعرية الأولى (ساعة ويذبل الزيتون) في بغداد العام 1976 وبعد اشتداد الحملة القمعية ضج الشيوعيين في نهاية السبعينيات هرب من العراق،

عمل في الصحافة اليمنية (اليمن الديمقراطي) ثم في الصحافة الفلسطينية في بيروت ودمشق، ثم في الصحافة العراقية المعارضة. أُعتقل خلال السبعينات من القرن الماضي ثلاث مرات في مديرية الأمن العامة وأمن بغداد، لمدد تتراوح بين الشهر والثلاثة أشهر.

سيرة زمنية:

- تولد : العراق - ميسان 1952
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

• عضو نقابة الصحفيين العراقيين
• يعمل في الصحافة منذ العام 1974
• مسؤول القسم العربي في مجلة الحرية اللبنانية 1986 – 2002
• نائب رئيس المنتدى الثقافي العراقي في سوريا 1988 - 2003
• أمين عام اتحاد الكتاب والصحفيين العراقيين في الخارج 2000 - 2004
• رئيس تحرير جريدة الصباح البغدادية 2005
• عضو مجلس أمناء هيئة الإعلام العراقية للبث والإرسال 2006
• مدير الإعلام في هيئة الإعلام والاتصالات 2006
• مستشار إعلامي في هيئة الإعلام والاتصالات 2007
• رئيس تحرير مجلة الشبكة العراقية 2014 - 2018
• تُوفي في 15 شباط/فبراير 2018.

الإصدارات:

1. **ساعة ويذبل الزيتون**، مجموعة شعرية باللهجة العراقية - بغداد 1976
2. **الحزب الشيوعي العراقي والقضية الفلسطينية** ، دراسة 1987
3. **مليت**، مجموعة شعرية باللهجة العراقية - دمشق 1992
4. **الموقف الإسلامي من المرأة**، دراسة مخطوطة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

1988

5. **عطر الغايب**،مجموعة شعرية باللهجة العراقية - بيروت 2000

6. **مسار السنونو**، رواية سينمائية بيروت 2003

7. **خارج المتن**، مقالات في الثقافة والمثقف ، بغداد - 20104

8. **تحولات شارع مريدي**، قصص، "ألف ياء" 2025

9. مئات المقالات والدراسات السياسية والثقافية، في صحف ومجلات عراقية وعربية 1980 ، 2018

منشورات «ألف ياء AlfYaa»